القسم الثاني

الفصل الأول

افريقية الشمالية عبر التاريخ

١ ـ فينيقيا تشيد قرطاجة في افريقية الشمالية .
٢ ـ قرطاجة دولة عربية في افريقية .
٣ ـ افريقية الشمالية تحت حكم الرومان .
٤ ـ الفاندال وحكم افريقية .
٥ ـ حكم بيزنطة في افريقية .
٦ ـ المعطيات البشرية .
٧ ـ المعطيات الجغرافية .
٨ ـ افريقية عشية الفتح الاسلامي .
آ ـ الوضع السياسي .
ب ـ الوضع الديني .
ج ـ الوضع العسكري .

افريقية الشمالية عـــبر التاريخ

التاريخ القديم لافريقيا الشمالية مجهول في معظمه سوى بعض الشواهـد على وجود اتصال وثيق بين شعوب القـارة الافريقية وشعوب شمال البحر الابيض المتوسط وان اقتراب ساحـــل افريقيا الشمالية من شاطىء جنوب أوروبا، وبصورة خاصة بين الاندلس والمغرب وبين تونس وايطاليا، هذا الاقتراب قد ساعد على اقامة جسور بحرية بين القارتين، فكان البحر الابيض المتوسط بـين القارتين جسر اتصال اكثر مما هو حاجز انفصال ..

– ان التنافس ومناخ السباق للسيطرة على القارة الافريقية يمتد في جذوره على ما يظهر حتى اعماق التاريخ، وان ما يشهده عالمنـا المعاصر من صراعات بين الدول العظمى قريب الشبه في معالمه بما شهده التاريخ القديم بـــين فينيقيا وقرطاجة وبين مقدونيا ثم بين مقدونيا وروما ثم بين روما وفارس، حيث كان الصراع بين هذه الاقطاب الثنائية يلقي ظلاله على شعوب منطقـة حوض البحر الأبيض المتوسط كلها .

– وكان للصراع بين دول العالم القديم دور كبير في اغناء التراث الحضاري وانضاج التفاعلات الاجتماعية والعلمية . كما كان لهذا الصراع دور هام ايضاً في نقل منجزات العالم القديم الى الاجيال اللاحقة، وان اكثر ما وصلنا من المعلومات وضوحاً عن شمال افريقية واكثرها وثوقاً هي تلك التي حملها الينا تاريخ حروب الشعوب القديمة وامبراطورياتها المتنازعة فوق رمال افريقية الشمالية .

١ – فينيقيا .. تشيد قرطاجة في افريقية الشمالية :

– انطلقت من قلب الجزيرة العربية موجة من موجات الهجرات المتتالية

وذلك في سنة ٢٥٠٠ ق.م ، وانقسمت هذه الموجة الى فرعين استوطن اولهما في حوض الفرات وسهول سوريا الداخلية واقاموا مملكة عرفت باسم «العمورنين» كما استوطن الفرع الآخر على امتداد سواحل سوريا الطبيعية وعرفوا باسم « الكنعانيين » الذين اطلق عليهم اليونانيون اسم « فينيقيا ـ و ـ الفينيقيون » نسبة الى اللون الأحمر الارجواني الذي كان الفينيقيون يستخرجون لونه من المحارات البحرية ويصبغون به ثيابهم .

اقام الفينيقيون مدنهم على امتداد الساحل ما بين كيليكيا شمالاً وعكا جنوباً ونظموا ممالكهم ، فكانت كل مدينة وما يحيط بها مملكة مستقلة ثم تطورت هذه الممالك فضمت القصور والمعابد والقلاع ، وحفلت اسواق المدن بمختلف البضائع ، كما تطورت الزراعة وتنوعت محاصيلها ووجد الفينيقيون انفسهم في مواجهة التحديات الآشورية والبابلية والمصرية فعملوا على تطوير اسلحتهم واستخدموا الاسلحة البرونزية والمركبات القتالية ، والعربات التي تجرها الخيول .. لكن اهتمام الفينيقيين بالتجارة والزراعة جعلهم دون جوارهم في قدرتهم القتالية فخضعوا للمصريين والآشوريين والبابليين ولكن الخطر الاكبر الذي جابهم تمثل بالعبرانيين الذين باغتوا الفينيقيين واحتلوا المناطق الجبلية واحرقوا بوحشية المدن وعملوا على ابادة السكان الأصليين وذلك في القرن الثاني عشر ١٢ ق.م. ثم وفدت من منطقة بحر ايجة موجة من الشعوب البحرية المحاربة ، عرفوا باسم شعوب البحر ، أو الفيليستي ، واستوطن هؤلاء بين يافا وغزة وشيدوا عسقلان واشدود واصطدموا بالعبرانيين ودارت بين الطرفين سلسلة من المعارك انتهت بهزيمتهم ، ونظراً لقلة اعداد الفيليستيين فقد اندمجوا بالفينيقيين ، وبقي السهل الساحلي يحمل اسمهم « فلسطين » وكان من الممالك التي اقامها الفينيقيون في الداخل « فلسطين » مملكة يبوس « القدس » ومملكة بيت شان « بيسان » وعكو « عكا » ومجدو « تل المتسلم » وحبرون « الخليل » ومؤاب وعمون في شرقي الأردن ..

اما الممالك الساحلية فكانت تزيد على ٢٥ مملكة فينيقية اشهرها :

اوغاريت « وتعني حقل في موقع رأس شمرا حالياً » .

جبيل « جبيلو » شمال بيروت ٤٥ كم . صيـــدا « صيدون » . و « صور » وتعني « الصخر » . وقرطاجة « قريباً من مدينة تونس » ..

٢ – قرطاجة دولة عربية في افريقيا :

– يقسم المؤرخون العصر الفينيقي الى عهدين :

– عهد صيدا ٢٥٠٠ – ١٢٠٩ ق.م. وانتهى نتيجـة لانتصار العبرانيين على صيدا .

– عهد صور ١٢٠٩ – ٣٣١ق.م. وانتهى بتدمير قرطاجة وانتصار الرومان.

ومن منجزات العهد الاول بنـــاء مدن بزسيوم ، وزوجتيان في طرابلس الغرب وتونس .

ومن منجزات العهد الثاني بناء مدينة قرطاجة عام ٨٤٠ ق.م .

افادت قرطاجة من موقعها الجغرافي الهام فطورت تجارتها ودعمت اسطولها وزادت امكاناتها حتى اصبح سكان مدينة قرطاجة مليون نسمـــة ، واقامت قرطاجة قواعد بحرية لتبادل التجارة سواء في اسبانيا او في المغرب . وقد جاء في كتاب قصة الكفاح بين روما وقرطاجة للدكتور توفيق الطويل ص ٢٤ – ٢٥ وصفاً لحياة قرطاجة في عهدها الزاهر حيث نقرأ :

[لو قدر لك التجول في طرقات قرطاجة لرأيت أخلاطـــاً عجيبة من مصريين وسودانيين ويونانيين وقرطاجيين وبرابرة واسبان، على أن في وسعك تمييز القرطاجي من بين هؤلاء جميعاً دونما جهد او مشقة فهو يطالعك بشعره القصير ولحيته الطويلة ووجهه الناطق بالطيبة وهو مقبل عليك تحيط به روائحه العطرية ، وتدهشك الجواهر الثمينة التي يتحلى بها ، وتعرفه بغطاء رأسه الذي يشبه الطربوش عندنا وحذائه الذي يشبه الصندل ، فاذا تركت

المارة وتجولت بنظرك يمنة ويسرة اذهلتك كثرة المتاجر والحوانيت الشبيهة بالصوامع وهي طافحة بالبضائع المختلفة وقد جلس اصحابها متربعين يساومون عملاءهم في تباطؤ لكن دون ملل أو يأس ..] .

وتحدث الفيلسوف ارسطاطاليس عن نظام الحكم في قرطاجة ، فقال :

[.. ان لقرطاجنة دستوراً انفردت بكماله عن سائر الدول ولها شرائع غاية في الحسن ، ومن الدليل على ما وعته من الحكمة انها مع ما للأمة عندها من السلطان لم نجدها قط بدلت شكل الحكم ولا نشبت فيها فتنة ... وان القضاء عند القرطاجيين أفضل منه عند اليونانيين لأنهم لا يرضون له أغفال الناس بل يولّونه أحسنهم طريقة وأحمدهم سيرة ...] [1] .

في ذلك العهد ، وفي الوقت الذي كانت قرطاجة تبني لنفسها ولمن حولها حضارة وتطوراً كانت هناك دولة تستجمع اسباب قوتها للظهور واحتلال مكانتها كدولة قوية ، وكانت هذه الدولة هي روما ، وأصبح وقوع الصدام بين روما ـ قرطاجة امراً حتمياً حافزه الهيمنة على اسباب القوة والسيطرة على المجال الحيوي ..

– وقعت بين روما ـ قرطاجة مجموعة من الحروب تقسم الى ثلاثة مراحل.. وقد عرفت هذه الحروب باسم الحروب البونيكية [2] ..

– الحروب البونيكية الأولى ومدتها ٢٣ سنة (٢٦٤ –٢٤١ ق.م.) انتهت بانتصار روما وحصلت فيها على جزيرة صقلية ..

– الحروب البونيكية الثانية (٢١٨ – ٢٠١ ق.م) وانتهت بانتصار قرطاجة بقيادة هانيبال التي نجح في تدمير جيش روما في معركة « كاني » ٢١٦ ق.م.

---

(١) تاريخ المغرب ١ / ٤٣ – ٤٤ .

(٢) الحرب البونيكية نسبة الى بونيك ، وهي التسمية التي كان يطلقها اهالي روما على المواطن القرطاجي .

- الحرب البونيكية الثالثة والأخيرة (١٤٩ - ١٤٦ ق. م) وانتهت بانتصار روما واحتلال قرطاجة [١] .

- وهكذا سقطت قرطاجة ، ولكنها أعطت طوال وجودها علماً وحضارة حفظهما لها التاريخ ، وكانت حلقة اتصال بين شعوب العالم القديم فقاربت بينهم ، وكان هذا الاتصال خير وسائل تفاعل الحضارة عبر التاريخ ..

- افادت الشعوب الافريقية بقبائلها المختلفة من وجود قرطاجة فاقتبست عنها اساليب التجارة وتعرفت من خلال اسفار القرطاجيين على شعوب العالم الاخرى ، كما افادت من تنظيمها العسكري واساليبها القتالية خبرات جيدة .

- واخيراً افاد السكان الافريقيون من المراكز التجارية والمدن التي اقامها القرطاجيون مثل تينجيس « طنجة » ولكسوس « قرب العرائش » وروساديو « مليلة » فكانت هذه المراكز والمدن الخطوة الاولى في انتقال السكان من حياة البداوة الى حياة الحضارة والاستيطان في المدن ..

- لقد كان في قضاء روما على قرطاجة تحويل لمركز السيطرة على العالم القديم وانتقال بهذا المركز من شمال افريقيا الى جنوب اوربا . وكان لهذا التحول آثاره السيئة على السكان الذين لم يتقبلوا بسهولة احتلال الرومان لهم .. لا سيما وان علاقاتهم مع قرطاجة كانت قائمة على اسس من الاحترام المتبادل والثقة التامة والتفاهم المطلق .

٣ - افريقية الشمالية تحت حكم الرومان :

- أسقط الرومان قرطاجة وبدأت قواتهم تتابع توسعها التدريجي في افريقية الشمالية ، ولم تكن هذه العملية سهلة فقد نظم الافريقيون مقاومات مستمرة وفي النهاية نجح الروم بالسيطرة على شمال افريقية ، لكن حركات التمرد

....

(١) تاريخ فن الحروب ، الجنرال ستروكوف ١ / ٦٨ - ٧٠ .

والثورات لم تتوقف وكان من اكبر هذه الثورات ثورة تاكفواس عام ١٧ م ، وحركة التمرد الكبرى التي اخضعها « بومبي » عام ٨٠ م . وكان من نتيجة هذه الثورات والاضطرابات اقدام الرومان على تطبيق الاسلوب الدفاعي الذي طبقوه على امتداد حدودهم في اوربا وآسيـــا ، فأقاموا « الليمات ـ Limes » لحماية حدودهم . ولم يكن « الليم » أو الحد مجرد سور بسيط مزدوج مــع طريق للتفتيش بل كان منطقة دفاع منظمة في العمق ومجهزة بقواعد تخزين تخدمهـــا شبكة طرقات استراتيجية ومواصلات نهرية مهيأة للمواصلات السريعة ، كانت الدفاعات في افريقيــة اكثر تجزئة وتقطعاً وكانت تراقب منابع الميــاه وطرق القوافل وكذلك حفرت الآبار لأن الري يتيح استقرار الحضر المقيمــين ويسهل تعاونهم مع الحاميات ضد تسلل البدو ، وتتالت المنشآت من جنوب طرابلس الغرب حتى « تنغيتان او تنغيتز ـ Tingitane » في مراكش متخللة الهضاب المرتفعة ، وكان الموقع العسكري للقطاع المركزي في مدينة لامبيز[1] العسكرية مقر الليجيون الثالثة ـ اوغستار ، وقــد خططت تخطيط مخيم طوله اربعمائة وخمسون متراً وبنيت بقوة وأبهة وهي تنظم حول مقر القيادة وحرم العقبان المقدس حيث يحتفظ بالرايات ومالية افراد الليجيونات وأبنية الادارة والمنازل والمساكن المخصصة لمختلف الرتب والمصالح ودار الصناعة مجموعة واسعة غنية جديرة برحابة الامبراطورية . ان ليجيون موقع لامبيز هي فرقة خط الدفاع ولكنها خارج هذين الاحتمالين ، كان قيامهــا بالمسير التدريبي والتمارين اليوميــة وبالمناورات والاعمال تشغل وقتها كله ، وقــد أنشأ افراد الليجيونات طرقات شاهد الفرنسيون آثارها في القرن التاسع في اماكن لم يكونوا ليتوقعونها أبــداً وكذلك أنشأوا مدناً كمدينة « تيمغاد » Timgad عام ١٠٠ م شمال اوراس والتي لا زالت آثارهــا محفوظة بشكل مدهش ، وكانت أروقة لامبيز تصلح كملجأ تجري فيه التمارين اذا ما أصبح الطقس سيئاً ، اما في بلاد الشمال الباردة

---

(١) لامبيز Lampese ، مدينة صغيرة شمال الاوراس الجزائرية ، فيها آثار رومانية .

فقد كان في فصل الشتاء وفي بعض المناطق يلاحظ وجود معسكرات صيفية اكثر بساطة ، وفيما بين هذه تعرض الاشارات النارية المتقدة على أعمدة خشبية متحركة حسب رموز معينة تنقل سريعاً الأوامر وإشارات الإنذار والخدمة بين هذه المنشآت ، وقد وجد بين خرائب لامبيز ستة آلاف كتلة من الرصاص وثلاثة آلاف كرة حجرية تركت دون استعمال ، مما يؤكد كارثة الامبراطورية التي وقعت ضحية الانحلال تحت هجمات البرابرة [1] ..

احتل الرومان في البداية قرطاجة ثم انتقلوا الى سواحل الجزائر ، المغرب الاوسط ، واخيراً وفي عام ٤٢ م فقط استطاعوا فرض سيطرتهم على المغرب الاقصى « مراكش » ، وكانوا يطلقون على هذه السواحل اسم موريتانيا ، لكن هذه السيطرة لم تتجاوز حدود مدينة « سلا » التي كانوا يطلقون عليها اسم « سلاكولونيا » ، وبقيت مناطق المغرب الاقصى الباقية خارج سيطرة الرومان الا في فترات قصيرة ..

– تميزت معاملة الرومان للشعوب المغلوبة بقسوتها ، نظراً لان الرومان كانوا يحتقرون الشعوب التي يحكمونها ، لكن الحروب الكثيرة التي خاضتها روما للدفاع عن حدودها الواسعة ، بالاضافة الى حروبها المستمرة مع شعوب الغزاة كالقوط الشرقيين والغربيين والبورغونيين والفانداليين والافرنج والآلامان والسارمانيون والهان ، كل ذلك مما ارغم روما على تعديل تنظيم جيوشها والاستعانة بالمرتزقة والمتطوعين ، والاعتماد على السكان الافريقيين . وفي نهاية القرن الاول الميلادي وبداية القرن الثاني ، اعتمد الامبراطور الروماني دوميتان [2] على « لوسيوس كويتوس Lucus - Quietus » البربري الأصل للافادة من قبيلته

....

(١) تاريخ جيوش العالم ١٩٢ – ١٩٤ ، المجلة العسكرية ١ و ٢ سنة ٧٣ م .

(٢) دوميتان ، Domitien ـ ٨١ ـ ٩٦ م آخر القياصرة الاثني عشر ، حاول تقليص نفوذ الارستقراطية الرومانية وقام بمجموعة حملات ناجحة ضدها ، غير انهم اغتالوه بمساعدة زوجته دومبيا .

الموريتانية في دعم للقوات الرومانية ، وقام لوسيوس بالدور الذي قام به والده من قبله ، واصبح لرجاله الفرسان بشعورهم الطويلة المجعدة والمسلحين بالمزاريق شهرة واسعة حتى أن الامبراطور دوميتان منحه رتبة (قائد الحلفاء) ، لكن الامبراطور دوميتان عاد فانتزع الرتبة منه لسوء انضباطه ، وعاد الموريتاني الى صحرائه .. ثم أتي الامبراطور « تراجان »[1] ليعيد رتبتـــه بسبب حاجته لرجاله في حروبه مع « الداسيين » رومانيا ، لقد كان البرابرة من نخبة الفرسان ، وكان ابعاد دوميتان لهم من اسباب هزيمته ، ونظراً للحاجة الملحة لم يكن امام تراجان الا معاودة الاعتماد عليهم لدعم حروبه ..

– وجه تراجان القائد البربري « كويتوس » لحرب الداسيين وقـــد نجح كويتوس بتطويق الداسيين في ترانسلفانيا وابادتهم فكللت هامته بالامجاد ، وفي عام ١١٣ خاض لوسيوس كويتوس حرباً ضارية ضد البارثيين في ارمينيا وبلاد ما بين النهرين وحقق انتصارات رائعة دعت الى قبوله في مرتبة مجلس الشيوخ « بريتور » Preteur ، وان ذلك من بعض الأمثلة للعلاقات بين روما والشعوب في افريقية الشمالية وما حققه الطرفان من منجزات وفوائد متبادلة[2] كان من أولها قيام الثورات المستمرة التي تطورت عام ٣٩٧ م الى حرب حقيقية فرضت على روما سحب افضل كتائبها الكوهورت من بلاد الغال لقمـع ثورة جيلدون Gildon في افريقية ..

– كان من نتيجة الحروب الدائمـــة التي خاضتها روما على مختلف مسارح العمليات في اوربا والشرق احداث تطور كبير سواء في بناء القوات المسلحـة وتنظيمها او في التنظيم للمعركة او حتى في التسليح ..

واذا كانت « الليمات » والحصون الدفاعية المتصلة حيناً والمنفصلة احياناً قد

....

(١) تراجان ، ٩٨ – ١١٧ م ، امبراطور روماني ، استولى على داسيـا ١٠١ – ١٠٦ وارمينيا وهزم البارثيين ١١٥ ، اشتهر بالتنظيم والابنية واضطهاد المسيحيين .

(٢) المصدر : تاريخ جيوش العالم ١ و ٢ – ١٩٧٣ من المجلة العسكرية .

افادت في تطوير الحرب الدفاعية فان تطور الفالانج اليوناني الى ليجيونات تنقسم بدورها الى مانيبولات امكن من اعطاء عمق للهجوم ووفر الفرصة امام معطيات جديدة اولها واكثرها اهمية مبدأ التوزيع غير المتساوي للقوات على طول الجبهة واحداث اساليب جديدة في التنظيم للمعركة ..

اما في مجال التسلح فقد ظهرت الابراج الخشبية المجهزة بعبارات متحركة وسراديب زحافة بالاضافة الى تطوير الصنبر والتروس الخشبية المكسوة بالجلود..

كما تطورت الأسلحة ذات الرمي المستقيم من صنف الزيار « الكاتابولت » والقادرة على قذف ١٠٠ كغ حتى مسافة ٥٠٠ م ، وهذه تستخدم ايضاً لقذف الرماح المجهزة اسنتها وتجلل بالمواد المشتعلة ، بالاضافة الى الاسلحة ذات الرمي المنحني التي تقذف ما يعادل وزن ٣٠٠ كغ حتى ٦٠٠ م ..[١]

– لقد اسهمت قوات افريقية الشمالية بحروب ـ روما ـ وكان لهذا الاسهام دوره في تكوين خبرات قتالية عند شعوب افريقية الشمالية ..

٤ ـ الفاندال وحكم افريقية :

الفاندال Vandales من الشعوب الجرمانية قدموا من الشمال الشرقي لأوربا، وقسم منهم سلافيون كانوا يقطنون بين الأودر والفيستول ولهم ذات العقيــدة العسكرية للآلامان والسارمانيين .

في عام ٤٠٦ م عاثوا في بـلاد الثالين وأقاموا في اسبانيا ، حيث حملت الاندلس بعد ذلك اسمهم « فاندالوسيا » .

في عام ٤٢٨ م ـ طردهم القوط الغربيون « الفيزيقوطيون » من الانـدلس فعبروا الى افريقية واستقروا في قرطاجنة .

في عام ٤٢٩ ـ نهبوا روما ، واستباحوها ..

....

(١) المجلة العسكرية ٤ و ٥ – ١٩٧٣ ، تاريخ جيوش العـالم ، وتاريخ فن الحرب الجنرال ـ ستروكوف .

في عام ٤٥٥ ـ اكتسح الفاندال مصر وايلليريا واليونان وأعملوا في هـذه الأقاليم تدميراً وتخريباً ..

في عام ٥٣٤ ـ جهز الامبراطور جوستنيان الأول Justinien امبراطور بيزنطـة ٥٢٥ ـ ٥٦٥ م جيوشه ووجـه قادته بليزير وناريس لحرب الفاندال والفرس وفتح افريقية وايطالية .. وكان تحت تصرف بليزير Belizaire ...و١٥ مقاتل لهـذه الغاية ، ونجح بليزير في الانتصار على الفرس والفاندال والقوط الشرقيون « اوستروقوط » ..

في عام ٥٥٤ ـ استعادت بيزنطة الاندلس « الوادي الكبير » من قبضـة الفيريقوطيين ..

ـ تلـك هي فكرة عن ظهور الفاندال وتطور حكمهم ، في اوربا حتى وصولهم افريقية ثم نهايتهم على يد البيزنطيين ..

في عام ٤٢٩ ، وبينما كان الفاندال يعيشون فساداً في عاصمـة الامبراطورية الرومانية كان بونيفاس أحد حكام روما في افريقية يتصل بالفاندال ويغريهم على احتلال افريقية وانتزاعها من قبضة الرومان ، ولبى «جنسريك» ملك الفاندال طلب بونيفاس ، لا سيما وأن أسطوله الضخم كان قـد فرض سيطرته على البحر الابيض المتوسط فنقل جنسريك قواته وقام بانزال بحري على شواطىء افريقية واخذ ينطلق من المغرب فيحتل مدينة بعد مدينة حتى وصل قرطاجنة فاحتلها سنة ٤٣٥ م ، وجعل منها عاصمـة له بعد ان اصبحت افريقية تحت سيطرته .

ـ في عام ٤٧٧ م ، توفي جنسريك ، وتولى الملك بعده ابنه « هنريك » ولم تكن له قوة ابيه وقدرته ، كما تميز حكمه بالقسوة التي تركزت على الكاثوليك حيث ألقى القبض عام ٤٨٣ على خمسـة آلاف من رهبانهم وصـادر اموالهم وممتلكاتهم وشردهم في الصحراء . وفي عام ٥٢٣ م اصبح « هلدريك» ملكاً على الفاندال ، وكان ضعيف الارادة ، ضعيف الشخصية فخلعه الفاندال وولوا مكانه « جيلمير » فاستنجـد « هلدريك » بجوستينيان امبراطور بيزنطة وكان

« جوستينيان » قد وضع مخططه لاستعادة السيطرة على روما الغربية وشمال افريقية ، ووجه جيوشه ، فوصل عام ٥٣٤ م الى افريقية ونجح في تصفية حكم الفاندال ، وازالة وجودهم بعد أن استمر حكمهم فترة (٩٩) عاماً في ارض افريقية الشمالية ..

٥ - حكم بيزنطة في افريقية :

بعد أن استعاد « بليزير » افريقية الشمالية وأتبعها لامبراطورية بيزنطة ، اخذ الامبراطور جوستينيان يحكم قبضته ويصدر القوانين الصارمة لإخضاع حركات التمرد ، وأعاد ترميم « الليمات » ، والحصون الدفاعية ، وكان الحكم البيزنطي يشمل مصر حتى برقة وطرابلس وتونس وجبال الاوراس، ويسير بعد ذلك في شريط ضيق يسير مع الساحل حتى يصل الى طنجة وسبتة ، وقسمت هذه البلاد الى اقسام ادارية ثلاثة منها يحكمها قناصل واربعة منها يحكمها مديرين ، وكانت هذه الاقسام اشبه ما تكون بالمناطق العسكرية ، يحكمها الدوقات Dux .

– كانت بيزنطة لا سيا بعد انهيار « روما » تحمل اعباء جسيمة في الدفاع عن حدودها سواء من الغرب حيث القوط الشرقيون والغربيون ، او من الشرق حيث الفرس ، ونظراً لحاجة بيزنطة الى الدعم فقد اعتمدت على البربر وأفسحت لهم المجال واضطرت الى ضم قبائل كاملة، وكان لذلك دوره في نمو الروح القتالية عند البربر واكسابهم خبرات قتالية، ولم يعد باستطاعة بيزنطة حكم شمال افريقية بالقوة ، فضعفت سيطرتها عليها تدريجياً ، حتى انتهى الأمر الى شبه استقلال افريقية عن الدولة البيزنطية ..

٦ - المعطيات البشرية [١] :

كانت افريقية في مفهومها القديم تمتد من حدود مصر وحتى الاطلسي ، ومن

---

(١) تاريخ المغرب ٥٢ - ٥٦ . تاريخ المغرب العربي ٣٠ - ٣٢ .

البحر الابيض المتوسط شمالاً حتى سلسلة الجبـــال وحدود الصحراء الكبرى جنوباً .. وهي تمثل حالياً ليبيا وتونس والجزائر ومراكش « المغرب » ..

– وكان سكان افريقية في تمــاس مباشر واتصال دائم مع حضارات العـالم القديم ، بداية من فينيقية مؤسسة « قرطاجنة » ونهاية بحكم بيزنطة ، وكان لا بد لهذا الاتصال من ان يترك طابعه على الجغرافيا البشرية للسكان ، فكان هنـــاك الافارقة وكان هناك البربر – وجميعهم من سكان البلاد الاصليين – اولهم اختلط بالروم وتزاوج معهم واختلط بهم وثانيهم وهم البربر ، حافظ على بداوته فابتعد عن الروم واعتزلهم ورفض الاختلاط بهم او الدخول في مجتمعهم، وبالاضافة الى ذلك كانت هناك مجموعات من العرب والرومان والفاندال الذين ارتضوا البقـاء تحت حكم من وليهم بعد زوال دولتهم وفضلوا البقاء في مواطنهم التي عاشوا فيها بعد زوال حكمهم فكونوا أقليات ضمن المجتمع الافريقي ، ويضاف الى هؤلاء اليهود ممن مزقهم الحكم الروماني والفارسي والبابلي ، فتفرقوا في كل اتجاه وكان منهم اناس في مصر وآخرون في افريقية ..

– وكانت حدود الصحراء وواحاتها هي مناطق الاتصال والاختلاط بـين الوافدين الى افريقية وبين سكانها الأصليين وهو الاختلاط الذي كان من نتيجته ظهور لون من المولدين فيهم صفات الوافدين وملامحهم وفيـــه صفات الأفارقة الأصليين وملامحهم ونموذج هؤلاء الشعر الأشقر والعيون الزرقاء في صفوف البربر .

– ومثلما حمل الوافدون معهم أصالتهم التي تركت في افريقية طابعها كذلك حملوا معهم معتقداتهم ، فكان هناك الوثنيون الذين لم تتمكن الديانات الوافدة من اجتذابهم او التأثير عليهم ، وكان هناك المسيحيون ممن استطاعت الكنيسة اكتسابهم الى جانبها وكان ايضاً يهود نجح المبشرون في التأثير عليهم لكن السواد الأعظم من البربر بقي على دين الوثنية ..

– كان مجتمع البربر بدائياً ، مثله كمثل المجتمع العربي في حينـــه ، فكان النظام القبلي سائداً وكان يتم تصنيف هذه القبائل ضمن مجموعتين البرانس، والبتر.

البرانس : ومن اشهر قبائلهم : أزداجة ، مصمودة ، أورية ، عجيسة ، كتامة ، صنهاجة ، اوريغة ، ويضاف اليهم حسب رأي بعض علماء الانساب لمطة وهكسورة وجزولة « كزولة » ويتفرع عن هذه القبائل بطون وأفخاذ مثل هوارة من اوريغة وغمارة من مصمودة ومليلة من هوارة ..

البتر : ومن اشهر قبائلهم : أداسة ونفوسة وضريسة وبنو لُوا الأكبر ويتفرع عن هذه القبائل بدورها بطون وافخاذ من نفزاوة ولوامة من لُوا و « ولهاصة » من نفزاوة ، وتيرغاش من ولهاصة ورفجومة من تيرغاش ..

ومثلما كان الاتصال بين القبائل العربية كان الاتصال بين القبائل الافريقية حتى أن الأمر قد اختلط بين العاملين على دراسة الانساب في العرب ، ويعود السبب في ذلك الى التزاوج والتصاهر بين القبائل البربرية .

– ان هذا التشابه بين تكوين مجتمع « افريقية » وتكوين المجتمع العربي قد حمل بعض المؤرخين العرب على الاعتقاد بأن سكان افريقية الأوائل هم من العرب الذين نزحت قبائلهم عن ارض الجزيرة وأقامت هناك [1] وحافظت على نظامها القبلي ، وهذا مخالف بدهياً للواقع ولما تثبته الاكتشافات العلمية عن التكون الأصلي للسكان في افريقية لكن هذا لا ينفي وجود اتصال وثيق بين عرب الجزيرة وبين سكان افريقية مع وجود هجرات من اليمن الى افريقية عبر الحبشة فالصحراء الكبرى وواحاتها فسهول افريقية ومستوطناتها ..

---

(١) في الكامل ، لابن الاثير ١ / ١١٥ ـ ما يلي : (.. أما من بقي من الجبارين فان « أفريقش » بن قيس بن صيفي بن سبأ بن كعب بن زيد بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان مر بهم متوجهاً الى افريقية فاحتملهم من سواحل الشام فقدم بهم افريقية ، فافتتحها ، وقتل ملكها جرجير ، واسكنهم اياها فهم البرابرة .. وأقام من حمير في البربر صنهاجة وكتامه فهم فيهم الى اليوم ..) وسواء كانت هذه الحادثة التاريخية صحيحة او غير صحيحة ، بالنسبة لاطارها الزمني فانه لا يمكن اسقاطها ، ومثلها مثل تغريبة بني هلال ، والزناتي خليفة وغير ذلك من القصص الشعبي الذي يمتد الى جذور حقيقية فقدت اطارها الزمني الصحيح ..

٧ - المعطيات الجغرافية :

- حكام قرطاجنة وأهلها هم أول من اطلق كلمة « أفري - Aphri » على السكان الأصليين أهل البلاد ممن كانوا يقيمون على قرب من عاصمة مملكتهم ، وجاء اليونان فأخذوا عنهم هذا الاسم وتوسعوا في استخدامه حتى شمل المنطقة ما بين المحيط وحدود مصر وهي التي حملت اسم Aphrica ، وقد اخذ العرب عن البيزنطيين الاسم ذاته وضمن الحدود الجغرافية ذاتها .. ثم اخذ هذا المفهوم شكلاً اكثر تحديداً بحيث اقتصر على « حدود ليبيا الحالية » واصبح اسم المغرب اكثر شمولاً ، وتم تقسيم المغرب الى ثلاثة اقسام : المغرب الأدنى وهو في حدود تونس الحالية وحمل اسم القيروان ، والمغرب الأوسط وهو في حدود الجزائر الحالية ،والمغرب الأقصى ويقصد به بلاد مراكش او المغرب في حدودها الحالية .

- لقد اخذ المؤلف ابن خلدون عن كلوديوس بطليموس العالم اليوناني ، تقسيم الارض الى سبعة اقاليم « خطوط عرض » اولها خط الاستواء وآخرها القطب ، ووفقاً لهذا التقسيم تقع افريقية واقاليم المغرب في الأقاليم الثالث والرابع ، في حين يقع الاقليم الثاني على حدودها الجنوبية والاقليم الخامس في حدود اوربا والشمال. ونطالع فيما كتبه ابن خلدون عن وصف جغرافية المغرب:

الحدود الجنوبية : **« الاقليم الثاني » وقبالة المغرب منه في البحر المحيط جزيرتان من الجزائر الخالدات ثم يلي ذلك ارض تنورية وبعدها في جهة الشرق ارض غانه ثم مجالات زغاوة من السودان وفي الجانب الأسفل صحراء نيسر متصلة من الغرب الى الشرق ، ذات مفاوز - هي الصحراء الكبرى - تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة وهم شعوب كثيرة ما بين كزوله ولمتونه ومسراته ولمطه ووريكه ، وعلى سمت هذه المفاوز شرقاً أرض فزان ثم مجالات أركار من قبائل البربر ذاهبة الى أعالي الجزء الثالث وعلى سمتها في الشرق وبعدها من هذا الجزء بلاد كوار من امم السودان ثم قطعة من ارض الباجويين وفي اسافل هذا الجزء**

الثالث وهي جهة الشمال منه بقية ارض ودان وعلى سمتها شرقاً ارض سنتريه وتسمى الواحات الداخلة ..

افريقية والمغرب « الاقليم الثالث » هو متصل بالثاني من جهة الشمال ، ففي الجزء الأول منه وعلى نحو الثلث من أعلاه جبل درن ، معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط الى الشرق عند آخره ، ويسكن هذا الجبل من البربر أمم لا يحصيهم الا خالقهم، وفي القطعة التي تلي هذا الجبل وعلى البحر المحيط منها رباطة ماسه ويتصل به شرقاً بلاد سوس ونول وعلى سمتها شرقاً بلاد درعة ثم بلاد سجلماسة ثم قطعة منصحراء نيسر المفازه وهذا الجبل مطل على هذه البلاد كلها . وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية الى ان يسامت وادي ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه الى ان ينتهي ، وفي هذه الناحية منه أمم المصامدة ثم هنتاتة ثم تينملك ثم كدميوه ثم مشكورةوهم آخر المصامدة فيه ثم قبائل صنهاجه ، وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زناته ويتصل به هنالك من جوفيه جبل اوراس وهو جبل كتامه وبعد ذلك أمم أخرى من البرابرة ، ثم ان جبل درن هذا من جهة غربيه مطل على بلاد المغرب الأقصى وهي في جوفيه، ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش واغمات وتادلا وعلى البحر المحيط منها رباط آسفي ومدينة سلا ، وفي الجوف عن بلاد مراكش بلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامه وهذه هي التي تسمى المغرب الأقصى في عرف أهلها ، وعلى ساحل البحر المحيط منها بلاد أصيلا والعرايش وفي سمت هذه البلاد شرقاً بلاد المغرب الاوسط وقاعدتها تلمسان وفي سواحلها على البحر الرومي بلد هنين ووهران والجزائر لأن هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة ويذهب مشرقاً فينتهي الى بلاد الشام ، ثم يتصل ببلاد الجزائر من شرقيها بلاد بجاية في ساحل البحر ثم قسنطينة في الشرق منها ، وفي آخر هذا الجزء وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوب هذه البلاد ومرتفعاً الى جنوب المغرب الأوسط بلد أشير ثم بلد المسيلة ثم الذاب

وقاعدته بسكرة تحت جبل اوراس المتصل بدرن الذاهب من الغرب الى الشرق ويغمر البحر مسافة من شماله ، اما جنوب الجبل وغربيه فكله مغاور ، وفي الشرق منه بلد « غدامس » وفي سمت غدامس والى الشرق تقع ارض ودان ، والقطعة الجوفية ما بينه وبين البحر الرومي في الغرب منها جبل اوراس وتبسه والاوبس ، وعلى ساحل البحر بلد بونه ثم في سمت هذه المدينة شرقاً بلاد افريقية ، فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم سوسة ثم المهدية،وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن ، بلاد الجريد توزر وقفصه ونفزاوه وفيا بينها وبين السواحل مدينة « القيروان » وجبل سلات وسبيطله وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقاً طرابلس على البحر الرومي وبازائها في الجنوب جبل دمر ونقره من قبائل هواره متصلة بجبل درن وفي مقابلة غدامس سويقة ابن مشكوره على البحر ، وفي جنوبها مجالات العرب في أرض ودان ويمر جبل درن ايضاً من هذا الاقليم الا انه ينعطف عند آخره الى الشمال وينهب على سمته الى ان يدخل في البحر الرومي ويسمى هنالك طرف أوثان والبحر الرومي من شماله غمر طائفة منه الى ان يضايق ما بينه وبين جبل درن فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب منه بقية أرض ودان ومجالات العرب فيها ثم زويلة ابن خطاب ثم رمال وقفار ، اما بين الجبل والبحر في الغرب منه بلد سرت على البحر ثم خلاء وقفار تجول فيها العرب ثم اجدابية ثم برقة عند منعطف الجبل ثم طلمسة على البحر] [1] .

– ويظهر من كتابة ابن خلدون ان جبال الأطلس « درن » هي الحد الفاصل بين المغرب وبين الأقاليم الواقعة الى الجنوب ، كما ان جبل كتامة « الاوراس » هو الحد الفاصل بين المغرب الأقصى والمغرب الأوسط من جهة ، وبين المغرب الأوسط وبين المغرب الأدني من جهة اخرى ، أما افريقية فحدودها الصحراء

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٢٩ ـ ٣٠ جبل اطلس : جبل درن .

مع مصر ، في حين تشكل جبال الأطلس « جبل درن » الحد الفاصل بينها وبين المغرب الأوسط « تونس » .

– والمغرب العربي « تونس – الجزائر – مراكش – موريتانيـــا » يكون اقليماً طبيعياً واحداً له معالمه الواضحة ، ويحتل هذا الاقليم من الوطن العربي القسم الشمالي والغربي من قارة افريقية على امتداد ألفي كلم (٢٠٠٠) بداية من قابس وحتى المحيط الأطلسي ، وتحد الصحراء الكبرى القسم الجنوبي منه وهو الذي يصلها بأفريقية المدارية .

– يقع المغرب العربي بين درجتي العرض (١٦ – ٣٧°) شمالاً ، وبـــين درجتي الطول شرق غرينيتش حتى (١٣°) درجـة غرب غرينيتش وتبلـغ مساحته ٤ ملايين كيلو متر مربـع ..

– ويمكن تقسيم المغرب من الناحية الجغرافية الى قسمين :

١ – المنطقة الشمالية البحرية .

٢ – المنطقة الجنوبية الصحراوية .

وتتكون المنطقة الشمالية من : ١ – السهول الساحلية. ٢ – الأطلس التلي. ٣ – الأطلس الصحراوي . ٤ – الهضاب العليا .

١ – المنطقة الشمالية :

وهي منطقة جبلية بصورة عامة ارتفاعها المتوسط ٧٠٠ م وتتفاوت ارتفاعات جبالها وتختلف تضاريسها ما بين مكان ومكان آخر وتعتبر بمجموعها التقـــاء لسلاسل الجبال الالتوائية الحديثة مع الكتل الجبلية القديمة .

والقشرة الأرضية لجبال المغرب العربي غير مستقرة ، وهي تتعرض ما بين فترة وفترة اخرى لهزات ارضية لعل احدثها زلزال اغادير في مراكش وزلزال مدينة الأصنام في الجزائر ، ويمكن التمييز بين الأقسام التالية – من الشمال الى الجنوب – مع العلم ان هذه الأقسام تندمج في الضهرة التونسية فتكون كتلة واحدة .

١ – السهول الساحلية : تبدأ هذه السهول واسعة عريضة في تونس حيث تكون السهل الساحلي ، ثم تضيق في الجزائر حيث سهل المتيجة وتعود لتتسع مرة أخرى في مراكش حيث سهول السوس والشاوية .

والساحل المطل على البحر الأبيض المتوسط صخري يضم مجموعة من الخلجان امثال خليج تونس وبنزرت . بينما يكون ساحل مراكش على الاطلسي منخفضاً قليل التعاريج ، وكذلك الأمر بالنسبة للساحل الشرقي في تونس ..

٢ – الأطلس التلي : وهو كلسي في قسمه الأكبر اثرت فيه عوامل التعرية والحت ، ويتكون من عدة سلاسل ساحلية وداخلية ،ومن هذه السلاسل الساحلية جبال الريف في المغرب ومن السلاسل الداخلية جبال وارسونيس وبيبان في الجزائر والأطلس الأوسط في مراكش حيث ترتفع هذه الجبال في المغرب الى اكثر من ٣٠٠٠ م ..

٣ – الأطلس الصحراوي : مجموعة من الطيات الملتوية يفصلها عن بعضها البعض عدد من الممرات ومن اشهر هذه الجبال الظهرة التونسية الممتدة نحو الرأس الطيب في تونس ، وجبال القصور التي تنتهي في الاوراس وأعلى قمة فيها ٢٣٠٠ م ، ثم جبال الأطلس الأعلى في مراكش حيث ترتفع فيها قمة جبل طوبقال حتى ٤١٦٥ وهي أعلى قمة جبل في الوطن العربي ..

٤ – الهضاب العليا : وهي قليلة في تونس وتقع بين سلسلتي الجبال الساحلية والداخلية .. وتبدأ هذه الهضاب منخفضة في تونس ثم تتزايد ارتفاعاً في اتجاه المغرب وفي الوقت ذاته تكون قليلة العرض والاتساع في تونس ثم تتزايد اتساعاً كلما تقدمت نحو المغرب وتكون في الجزائر السهوب العليا وفي المغرب « المائدة المراكشية » وفي هذه الهضاب منخفضات مغلقة بها مياه مالحة تسمى «الشطوط» وهي مماثلة للسنجات في الشام . وتضم هذه الهضاب ، احواضاً زراعية مثل سهل طلالا في مراكش كما تضم الجبال ايضاً مثل هذه الأحواض التي تستثمر في اعمال الزراعة ..

– وتضاريس المغرب مرتفعة بصورة عامة ومتقطعة ، ولهذا فانها تشكل عائقاً امام سبل المواصلات البرية وتتركز محاور الطرق بشكل تتوافق فيه مع الطبيعة الطبوغرافية فتتبع في مسيرتها السهول الساحلية والممرات الجبلية والأودية النهرية مثل وادي مجردة الذي يصل تونس بالجزائر ، وممر تازا بين الجزائر ومراكش وهو الممر الذي يصل ايضاً بين جبال الريف الساحلية وجبال الاطلس الداخلية في مراكش ..

٢ – المنطقة الصحراوية :

هي امتداد للصحراء الكبري وقسم منها ، تبدأ في الشمال عند السفوح الجنوبية لجبال الأطلس الصحراوي وتنتهي في الجنوب عند منطقة الساحل ، حيث شجر الصمغ والدوم وهي صحراء نباتية ، يتبع الجزائر منها مساحة تزيد على مليوني كيلو متر مربع (٢ مليون كم٢)،ويتبع موريتانيا مليون كم٢ تقريباً .

ويمكن تقسيم تضاريس هذه الصحراء الى قسمين اعتباراً من خط طول مدينة الجزائر ، فتتكون الصحراء المرتفعة الى شرق هذا الخط وتمتد الصحراء المنخفضة الى غرب هذا الخط ، وتتميز الصحراء الكبرى بصخورها المتبلورة القديمة ومنها (الحماد الصحراوي) الذي يضم هضاباً حجرية واسعة بها طبقات مائية جوفية وتحيط بالحماد المرتفعات الصخرية كما يشرف هذا الحماد على منخفضات مياهها مالحة او عذبة ، كما يوجد في هذه الصحراء (الدق) وهي مفاوز رملية من الحصى ، يندر فيها وجود الماء ، اما (العرق) فهي صحارى رملية تضم مرتفعات رملية ايضاً لكنها تحتوي على بعض آبار المياه ، وتأتي بعد ذلك الكتل الجبلية ذات الصخور البلورية والبركانية وأهمها جبل الاحجار على مدار السرطان – جنوب الجزائر – .

المنـــاخ :

يقع المغرب العربي تحت تأثير عوامـــل ثلاثة : البحر الأبيض المتوسط من الشمال والمحيط الأطلسي من الغرب والصحراء الكبرى من الجنوب ، ونتيجـة لتباين هذه العوامل الثلاثة يكون مناخ المغرب العربي مضطرباً متبايناً مثله في ذلك مثل الطبيعة الجغرافية ..

– وبدهي ان يتفاوت تأثير هذه العوامل على المغرب العربي حسب قربه من هذه العوامل وبعـــده عنها ، فالمناطق المجاورة لحوض البحر الابيض المتوسط والمحيط الأطلسي كثيرة الأمطار بصورة عامة في حين يتزايد التأثير الصحراوي كلما اقتربنا من الداخل في اتجاه الصحراء ..

٨ – افريقية ، عشية الفتح الاسلامي .

آ – الوضع السياسي :

استعاد بيلزير افريقية عام ٥٣٤ م ، وطرد الفاندال منهـــا واعادها لحكم بيزنطة فعمل الامبراطور « جوستينيان » على تقسيمها الى اقسام ادارية سبعة :

١ – الولاية القنصلية « شمال تونس الحالية » proconsularium .

٢ – الولاية الداخلية « بيزاكيوم » Byzacium .

٣ – ولاية طرابلس Tripolitania .

وكان يحكم هذه الولايات الثلاثة قناصل مدنيون في حـــين تركت الأقسام الأربعة لحكم مديرين وهي :

٤ – ادارة نوميديا Numidia .

٥ – ادارة موريتانيا الأولى Mauritania Sitifiensis .

٦ – ادارة موريتانيا الثانية ، وتشمل شمـــال مراكش
Moritania Cesariensis – moritania Tingtana

٧ – ادارة سردانية ..

- وعين جوستينيان حاكماً مدنياً لحكم افريقية بولاياتها واداراتها السبعة، لكن الثورات المتتابعة وضرورات فرض احكام قوية من اجل حشد الطاقات والامكانات اللازمة لحروب بيزنطة ارغمت الأباطرة على تعيين قائد عسكري لحكم افريقية واستبدل الحكام المدنيون بعد جوستينيان بحكام عسكريين يحملون لقب دوق Duz ، كما تولى حكم المدن قادة عسكريون لهم مطلق الصلاحية في ممارسة اعمالهم ..

- في عام ٦٠٢ م ، عين الامبراطور « موريس Maurice » لولايات افريقية بطريقاً من اصل ارمني عرف بكفاءته القيادية العسكرية الماهرة واسمه « هرقل » ، وندب لمعاونته في ادارة البلاد اخوه «جريجوريوس» وبدأ الأخوان هرقل وجريجوريوس في العمل الجدي لتهدئة الأمور والسيطرة على الاضطرابات ولكنهما بوغتا في عام ٦٠٨ بثورة في القسطنطينية انتهت بقتل الامبراطور موريس وقيام الامبراطور فوكاس .

- عمل هرقل مباشرة على التخطيط للانفصال عن بيزنطة بسبب ما وصله من انباء عن انحراف فوكاس وظلمه ، وقام بحجز السفن الناقلة للقمح من افريقية الى القسطنطينية واحتفظ بها في خليج قرطاجنة ، واسرع الناقمون على الامبراطور الجديد للاتصال بهرقل وحمله على انقاذ الدولة من الوضع المتدهور الذي انتهت اليه ..

كان هرقل رجلاً في الستين من عمره ، فندب ابنه هرقل ايضاً لتنفيذ واجب انقاذ الدولة ، واستطاع هرقل الابن ان يزحف بجيش افريقية ويطيح بحكم الامبراطور فوكاس ويقضي على اعوانه وانصاره ، وعندما تمت له تسوية الأزمة أراد العودة الى افريقية لكن رجال الدولة واساقفتها حملوه على قبول تاج الامبراطورية واحتفل بتتويجه في عام ٦٠٠ م ..

كان من الطبيعي ان يعترف الامبراطور هرقل بالعرفان لجيش افريقية واهلها نتيجة لما قدموه من عون في ايصاله لقمة السلطة ..

- مات هرقل «الأب» في افريقية عام ٦١٠ م ، وخلفه اخوه جريجوريوس، لكنه لم يستمر في ولايته طويلاً وخلفه البطريق «قيصريوس» ثم اعقبه نقيتاس «ابن جريجوريوس» وابن عم الامبراطور هرقل «الابن» ، وخلف نقيتاس ابنه «جريجويوس» على ولاية افريقية وهو الذي يعرفه العرب باسم «جرجير» وقد جاء الفتح العربي في عهده ، وقتله عبد الله بن الزبير في معركة العقوبة عام ٢٧ هـ - ٦٤٧ م .

ب - الوضع الديني :

- كانت الوثنية هي الديانة السائدة بين الافريقيين ، ثم دخلت المسيحية الى افريقية عن طريق مصر ، وعن طريق روما ، واعتنق كثير من البربر الديانة المسيحية وانتشر الرهبان بين البربر ، لكن الانقسام الكنسي انتقل الى افريقية ولم تعد الكنيسة واسطة بين الشعوب الافريقية والسلطة الحاكمة ووسيلة لتسوية التناقضات بين الحاكمين والمحكومين ، وانما اصبحت وسيلة لاكتساب الانصار مما احدث تمزقاً كبيراً بين المواطنين الأفارقة ، ولم تقف حدود هذا التمزق عند حدود اختلاف الولاء لكنيسة روما او كنيسة «بيزنطة» ، وانما تعدى ذلك حيث ظهر في افريقية اسقف كبير اسمه دونات Donat انشأ مذهباً خاصاً ورفض الاعتراف بشرعية انتخاب سليمان اسقفاً لقرطاجنة واعلن طلب الاستشهاد فاستجاب له كل الساخطين على الدولة وخاصة من طبقات الكادحين وذلك في الفترة التي سبقت اقتحام الفاندال لافريقية ..

- في عام ٦٣١ م حاول هرقل رأب الصدع في الكنيسة فأوجد مذهبه الجديد الذي حاول فرضه ، وذلك على نحو ما فعل في مصر ، وكان الرد الطبيعي هو حدوث مزيد من التمزق الديني الذي كان تعبيراً عن التمزق الاجتماعي والسياسي ووسيلة من وسائله ..

- وفي عام ٦٤٠ م ، وصل افريقية الراهب مكسيم وهو اشهر رجال الدين في القرن السابع الميلادي ، واخذ هذا الراهب ينشر تعاليمه بين القساوسة

البسطاء حتى يستطيعوا مجابهة سفسطة الرهبان البيزنطيين وأسلوبهم الجدلي ، ونجح الراهب مكسيم في انشاء قاعدة قوية له ، وحاولت كنيسة روما دعم الراهب مكسيم لمجابهة بيزنطة ، ونجحت في ذلك .

– كما لقيت حركة الراهب مكسيم دعم والي افريقية « جريجوريوس » الطامح بالاستقلال عن السلطة المركزية في القسطنطينية ، وعرف الراهب مكسيم ما يدبره « جريجوريوس » فباركه وشجعه .

– وفي هذا المناخ من التمزق الديني والاجتماعي والضعف السياسي جاءت ثورة الاسلام وفتوحات المسلمين لتبدل من صورة هذا الواقع .

ج – الوضع العسكري :

تركز جهد القيادة البيزنطية في افريقية على تنظيم حاميات قوية في حصون « ليمات » متقاربة ، وأقامت في كل حصن قوة كافية لحمايته والدفاع عنه ، ولم تتوقف هذه القيادات عن تنظيم خط واحد من الحصون بل أقامت ثلاث حاميات في حصون منسقة عمقاً .

– ان اقامة الجند في الحصون والمواقع المنعزلة أضعف من روحهم القتالية وافقدهم الروح الهجومية ، كما افقدهم في الوقت ذاته انضباطهم فأخذوا يغيرون على مزارع الأهلين ويروعون الآمنين وتحولوا شيئاً فشيئاً الى لصوص وقطاع طرق حتى عجزت الحكومة عن ردعهم واخضاعهم ، وتهاون من بقي منهم على الطاعة في القيام بواجباتهم العسكرية فتقاعسوا عن القتال وتهاونوا فيه ، وادعوا الحاجة الى الطعام وأخذوا بمبررات التعب وشدة البرد حتى اذا ساروا الى القتال دخلوا المعركة دونما تنظيم وخرجوا منه دونما تعليمات أو أوامر من قادتهم .

– لقد كان الهدف الأساسي من الحاميات في افريقية هو تحقيق الاستقرار والأمن وردع هجمات البربر وتأمين متطلبات الامبراطورية البيزنطية ، لكن

اعتماد أسلوب الدفاع الثابت والبقاء فترة طويلة في الحاميات البعيدة ، أفقد هذه القوات التي كانت فخر الامبراطورية قوتها وارادتها القتالية .

– وعلاوة على ذلك فان التمزق الديني ، والفارق الاجتماعي بـــين الروم والبرابرة من العوامل التي أضعفت القدرة القتالية للقوات المدافعة عن افريقية .

ـ هذا ومما يجدر ذكره هنا ، ان طول العهد واستمرار العلاقات بين بيزنطة والبربر خلال فترة طويلة من الزمن ، وظهور بعض القادة والحكام المصلحـــين أمثال هرقل وجريجوريوس قد خلق نوعاً من الانسجام والتوافق بين الروم وبين سكان البلاد الأصليين ، وعلاوة على ذلك فان الأسلوب الارهابي الذي اتبعـــه القادة البيزنطيين قد ترك لدى السكان نوعاً من الشعور بالهيمنة القوية التي لا يمكن ازالتها ، وان هـــذا الشعور يشابه الى حد بعيد شعور سكان الشام تجاه الروم واعتقادهم « بقوة الروم التي لا تقهر » . .

—٭—

القسم الثاني

الفصل الثاني

فتح افريقية

١ ـ معركة عقوبة « عبد الله بن سعد » .

آ ـ الغزوات الاستطلاعية . ب ـ الاستعداد وقوى الطرفين .

ج ـ حرب الاستنزاف والحرب النفسية . د ـ الصلح مع النوبة .

هـ ـ قمع حركة التمرد الأولى .

٢ ـ معركة الأجم « معاوية بن حديج السكوني » .

آ ـ الوضع العام قبل المعركة . ب ـ عقبة بن نافع وفتوحه بين ٤١ـ٤٥هـ.

ج ـ بيزنطة تحرض على الثورة المضادة . د ـ ابن حديج مرة ثالثة في افريقية ومعركة الأجم . هـ ـ استثمار الظفر ..

٣ ـ المد الكبير « عمليات عقبة بن نافع »

آ ـ الفتوح بين ٤٦ و ٦٢ هـ . ب ـ القيروان قاعدة متقدمة للعمليات .

ج ـ ابو المهاجر دينار ، وأعمال الفتوح . د ـ عقبة يتابع ثانية فتوحاته .

هـ ـ تهوذة المأساة ومقتل عقبة بن نافع ٦٣ هـ ..

٤ ـ معركة ممس « زهير بن قيس البلوي »

آ ـ الوضع العام . ب ـ خطة كسيلة . ج ـ المعركة الحاسمة .

د ـ المطاردة واستثمار الظفر . هـ ـ العدوان البيزنطي .

٥ ـ القضاء على ثورة الكاهنة وتدمير قوة بيزنطة في قرطاجنة «حسان بن النعمان»

آ ـ الوضع العام . ب ـ الوضع الخاص . ج ـ الواجب الأول «قرطاجنة» .

د ـ الواجب الثاني « معركة نيني » وفشل محاولة القضاء على ثورة الكاهنة .

٦ ـ القضاء على ثورة الكاهنة واستعادة قرطاجنة ٨١ ـ ٨٢ هـ .

آ ـ الوضع العام . ب ـ الكاهنة . ج ـ بيزنطة .

د ـ العرب المسلمون . هـ ـ مسيرة الأعمال القتالية .

و ـ تصفية قاعدة العدوان « قرطاجنة » .

ز ـ القضاء على النفوذ البيزنطي في البحر « بناء تؤنس » .

٧ ـ حرب القبائل « موسى بن نصير »

آ ـ الوضع العام . ب ـ المرحلة الأولى : تأمين قاعدة الانطلاق .

ج ـ التأمين البحري لافريقية « غزوة الأشراف » .

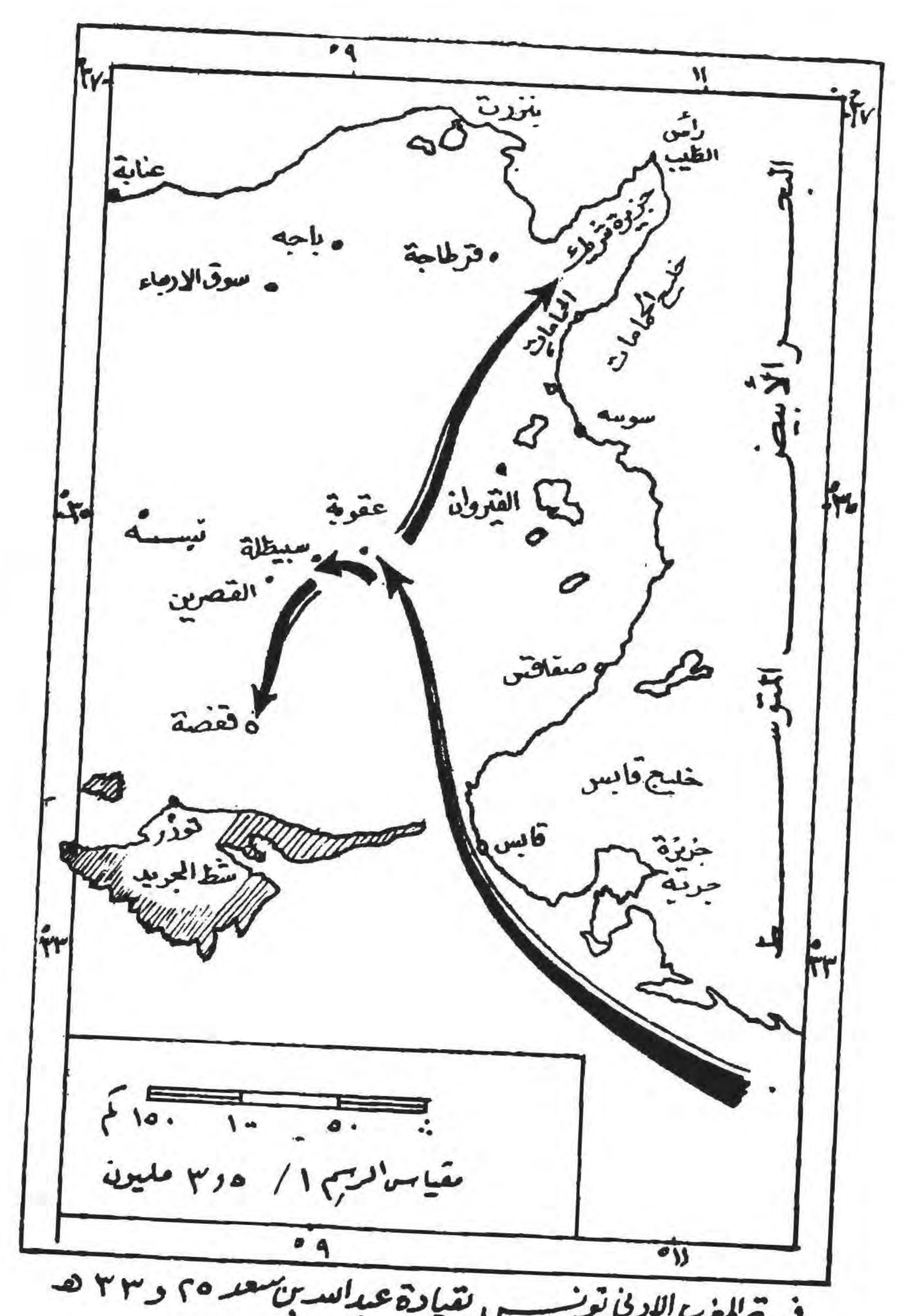
د ـ اخضاع القبائل المتمردة .

فتح افريقية

جدول توقيت الاحداث

السنة الهجرية	السنة الميلادية	الاحداث
٢٠ هـ	٦٤٠ م	**فتح مصر والاسكندرية .**
٢١ هـ	٦٤١ م	موقعة نهاوند ، وبداية تطوير عمليات الجبهة الشرقية .
٢٢ هـ	٦٤٢ م	فتح همذان — الري — قومس — جرجان — طبرستان — اذربيجان — باب الابواب .
٢٣ هـ	٦٤٣ م	فتح توج اصطخر — فسا — دار ابجرد — كرمان — نيسجستان — مكران — ببروذ .
٢٣ هـ	٦٤٣ م	**وفاة الخليفة عمر بن الخطاب وخلافة عثمان ابن عفان .**
٢٤ هـ	٦٤٤ م	غزو اذربيجان وارمينيا .
٢٥ هـ	٦٤٥ م	**اعادة فتح الاسكندرية .**
٢٥ هـ	٦٤٥ م	هجوم الروم في ارمينيا .
٢٧ هـ	٦٤٧ م	**فتح افريقية - « معركة عقوبة » .**
٢٨ هـ	٦٤٨ م	فتح قبرص بقيادة معاوية بن ابي سفيان .
٣٠ هـ	٦٥٠ م	فتح طبرستان .
٣١ هـ	٦٥١ م	موقعة ذات الصواري .

السنة الهجرية	السنة الميلادية	الاحـــداث
٣٢ هـ	٦٥٢ م	فتح مرو الروذ والطالقـــان وجوزجـان وطخارستان .
٣٤ هـ	٦٥٤ م	مقتل الخليفة عثمان وخلافة علي بن أبي طالب .
٤٠ هـ	٦٦٠ م	مقتل الخليفة علي واجتماع كلمة المسلمين على معاوية ـ حكم الأمويين .
٤٥ هـ	٦٦٥ م	معركة الأجم بقيادة معاوية بن حديج .
٥٠ هـ	٦٧٠ م	بناء القيروان « عقبة بن نافع » وفتوحه .
٦٠ هـ	٦٧٩ م	وفاة معاوية بن ابي سفيان وخلافة ابنه يزيد .
٦٣ هـ	٦٨٢ م	معركة « تهوذة » ومقتل عقبة بن نافع .
٧١ هـ	٦٩٠ م	معركة « ممس » ومقتل زهير بن قيس البلوي « يوم البلاء » .
٨١ هـ	٧٠٠ م	حسان بن النعمان الغساني ، والقضاء على ثورة الكاهنة .
٨٣ هـ	٧٠٢ م	بدء العمل لبناء مدينة « تونس » .
٨٦-٩٠	٧٠٥ - ٧٠٨ م	موسى بن نصـير ، وتحقيق الاستقرار في « افريقية » .



فتح المغرب الادنى تونس بقيادة عبدالله بن سعد ٢٥ و ٣٣ هـ

فتـح افريقيـة

١ - معركة عقوبة ٢٧ هـ - ٦٤٧ م

آ - الفزوات الاستطلاعية : ٢٤ - ٢٦ هـ - ٦٤٤ - ٦٤٦ م .

- أصدر الخليفة عمر بن الخطاب أوامره بالتوقف عن متابعة العمليات عند حدود « طرابلس » ، فعين عمرو بن العاص قائداً لحامية برقة هو عقبة بن نافع .

- نظم عقبة قاعدة عملياته في « برقة » واتخذ تدابير الأمن ثم وضع مخططاً لإرسال مفارز قتالية بصورة مستمرة ، وكان الهدف من هذه التدابير حماية برقة من كل هجوم مباغت ، والحصول على المعلومات الضرورية .

- وتوفي الخليفة عمر بن الخطاب عام ٢٣ هـ ، وخلفه عثمان بن عفان .

في عام ٢٥ هـ ، وبينما كانت بيزنطة تنظم هجومها على الاسكندرية ، نظم عثمان بن عفان جيشين قوة كل واحد منهما خمسة آلاف مقاتل ، وأسند قيادة الجيش الأول الى عبد الله بن نافع بن عبد قيس ، ولقيادة الجيش الثاني عبد الله ابن نافع بن الحرث وكلفهما بالهجوم على افريقيا ، وانطلقت القوات الى مسرح العمليات المخصص لها ، وتقدم القادة الافريقيون وحكام المناطق فصالحوا قادة الجيشين على جزية معينة ولم تتمكن هذه القوات من التوغل في العمق بسبب قلة عددها [١] .

لقد حققت هذه الغزوة الاستطلاعية بعض النتائج الهامة منها :

١ - وفرت الحماية للقوات المشتركة في عمليات اعادة فتح الاسكندرية بقيادة عمرو بن العاص وأمنت الحدود الغربية .

٢ - أظهرت هـذه القوة للقادة الافريقيين وحكام المناطق تصميم العرب المسلمين على تحطيم كل عدوان تقوم به بيزنطة او تحرض عليه

---

(١) الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ١ / ٦٧ .

ـ في هذه الفترة استحكم الخلاف بين عمرو بن العاص وعبد الله بن سرح، فخرج عمرو بن العاص الى المدينة ، وكان لقاءً حاراً انتهى بعزل عمرو بن العاص وتثبيت عبد الله بن سرح على ولاية مصر وافريقية ..

ـ تابع عبد الله بن سعد سيرة سلفه [**فكان يبعث المسلمين في جرائد الخيل كما كانوا يفعلون في ايام عمرو ، فيجيبون من أطراف افريقية ويغتنمون ، فكتب في ذلك عبد الله بن سعد الى عثمان ، وأخبره بقربهم من حرز المسلمين ويستأذنه في غزوها**][1] .

ـ من الواضح ان الغزوات الاستطلاعية وفرت للقادة العرب المعلومات الضرورية :

١ً ـ عن طبيعة السكان وقدرتهم القتالية وما يمكن للقوات العربية ان تلقاه من مقاومة .

٢ً ـ المحاور الأرضية وطرق المواصلات ، وموارد الحياة في مسرح العمليات المقبل .

٣ً ـ الروح المعنوية لقوات الخصم ..

ومما لا ريب فيه هو أن هذه الهجمات المتكررة ، قد أضعفت الروح القتالية لدى جيش الخصم ، مقابل ما اكسبته للقوات العربية الاسلامية من روح معنوية عالية .

ب ـ الاستعداد ، وقوى الطرفين في « عقوبة »[2] :

ـ عندما وصلت رسالة والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح الى الخليفة عثمان يستأذنه بفتح افريقية ، عقد الخليفة مؤتمراً [**واستشار من عنده من الصحابة فأشار اكثرهم بالاقدام على غزو افريقية**] ..

---

(١) فتوح مصر والمغرب ٢٤٦ ، والبلاذري ٢٢٧ .

(٢) عقوبة : موقع بينه وبين « سبيطلة » يوم وليلة .. البلاذري ٢٢٨ .

– أرسل الخليفة عثمان بن عفان إلى واليه في مصر موافقته لفتح افريقية، وبدأ في الوقت ذاته بتنظيم جيش لدعم عبد الله بن سعد، وعندما انتهى تنظيم الجيش [**أمر عليهم الحرث بن الحكم الى أن يقدموا عبد الله بن سعد مصر، فيكون الأمر اليه**[1] ، **وكان فيهم جماعة من الصحابة ...**] .

– سار عبد الله بن سعد فور وصول رسالة الخليفة، متوجهاً الى افريقية، ولما وصل بجيشه الى « برقة » حيث انضمت اليه حاميتها بقيادة عقبة بن نافع، ثم تابع عبد الله تقدمه حتى وصل « عقوبة » .

– [**كان مستقر سلطان افريقية بمدينة قرطاجنة، وكان عليها ملك يقال له جرجير كان هرقل استخلفه، فخلع هرقل وضرب الدنانير على وجهه وكان سلطانه ما بين طرابلس الى طنجة ..**][2] .

عندما علم جرجير بتقدم العرب المسلمين جمع جيوشه وتقدم الى العقوبة بهدف اعاقة المسلمين عن التوغل في بلاده ..

– كان مخطط جرجير هو الافادة من قرب قواعد تموينه والدخول في معارك يستنزف فيها قوة العرب المسلمين قبل الدخول معهم في معركة حاسمة ..

– كانت قوة جيش جرجير ١٢٠،٠٠٠، وكانت قوة جيش عبدالله ٢٠،٠٠٠ مقاتل، وهكذا فان ميزان القوى لصالح جيش جرجير يعادل ستة الى واحد ..

– في اليوم التالي للاصطدام بين القوات، وجه عبد الله رسولاً الى جرجير يعرض عليه شروط المسلمين المعروفة، الاسلام او الجزية او الحرب .

---

(١) فتح مصر وافريقية، ابن الحكم ٢٤٦ .
(٢) ابن الحكم ٢٤٦ ، الاستقصاء ١ / ٦٧ .
قرطاجة : مدينة لا تزال آثارها باقية بالغرب من تونس، ويقال ان تونس قد بنيت بعد تدميرها، وتتكون قرطاجة من اسمين قرطا بمعنى مدينة وجنة لطيب هوائها ونزهاتها .
طنجة : مرفأ على مضيق جبل طارق في شمال المغرب، كانت مركزاً من مراكز الفينيقيين ايام قرطاجة، وهي قاعدة لمنطقة دولية في الوقت الحاضر ..

ورفض جرجير الشروط مصمماً على متابعة الحرب معتزاً بما لديه من تفوق في ميزان القوى معتمداً على قربه من قواعده . وعندما وجد عبد الله ان جرجير مصمم على متابعة القتال قرر استئناف الحرب ، واستمرت المعارك بعد ذلك .

ج - حرب الاستنزاف والحرب النفسية :

- استمرت المعارك اليومية بين جرجير وبين عبد الله بن سعد اياماً دون أن يحقق طرف من الطرفين نتيجة حاسمة ..

- كان العرب المسلمون مصممون على انتزاع النصر ، مصممون على الاستمرار في القتال ، وكان جرجير مصمم على دحر العرب المسلمين والحاق الهزيمة بهم .

وكانت المعارك نتيجة لذلك طاحنة ، وزاد من قسوتها صعوبة المناخ وطبيعة الاقليم ، فكانت المعارك القتالية اليومية تبدأ منذ الصباح المبكر وتنتهي عند الظهر ..

- وبعد أيام من القتال وصلت قوات الدعم « جيش العبادلة » وانضم الى قوة عبدالله بن سعد . [**ولما سمع جرجير بوصول المدد فت ذلك في عضده..**] [1]

- كان عبد الله بن الزبير في جيش العبادلة ، وشهد القتال منذ وصوله ، وعلم ذات يوم بغياب ابن ابي سرح فسأل عنه [**فقيل له انه سمع منادي جرجير يقول من قتل ابن أبي سرح فله مائة الف دينار وأزوجه ابنتي فخاف وتأخر عن شهود القتال ، فقال له ابن الزبير : تنادي أنت بأن من قتل جرجير نفلته مائة الف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده ، فخاف جرجير أشد منه**] .

- عندما استمر القتال اراد القادة وضع حد حاسم لحرب الاستنزاف ، فجلس عبد الله بن الزبير الى عبد الله بن أبي سرح وقال له :

[**... ان أمرنا يطول مع هؤلاء ، وهم في امداد متصلة وبلاد هي لهم**

---

(١) الاستقصاء ١ / ٦٧ .

ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت ان نترك غداً جماعة صالحة من ابطال المسلمين في خيامهم متاهبين ، ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر الى أن يضجروا ويملوا فاذا رجعوا الى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونوصدهم على غرة ، فلعل الله ينصرنا عليهم ...] [1]

– عقد ابن أبي سرح مؤتمراً للقادة ، ونوقش اقتراح عبد الله بن الزبير وتقرر تنفيذه في اليوم التالي ..

– أقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم – صبيحة الغد – وكانت خيولهم عندهم مسرجة ، ومضى الباقون فقاتلوا الروم الى الظهر قتالاً شديداً ، فلما أذن الظهر وهمّ الروم بالانصراف على العادة لم يتركهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم ، ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، فكلّ من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعباً ... عند ذلك أخذ الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم ، وحملوا حملة رجل واحد وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون[2] .

– انطلق عبد الله بن الزبير في هجومه ، وشاهد خلال المعركة (جرجير) وقد خرج من عسكره فأخذ معه ثلاثين فارساً اختارهم بنفسه وكان «جرجير» وراء عسكره على برذون اشهب ومعه جاريتان تظلانه بريش الطواويس وبينه وبين عسكره أرض بيضاء ليس فيها أحد ، فحمل عبد الله مع قوته في الوجه الذي فيه جرجير وقال للفرسان الذين معه احموا ظهري ، فخرق الصف الى « جرجير » وخرج صامداً له وما يظن هو وأصحابه إلا أن ابن الزبير رسول اليه حتى دنا منه فعرف الشر ،فثنى برذونه مولياً لكن ابن الزبير أدركه فطعنه وأجهز عليه « دافه » وحز رأسه ونصبه في رمحه وكبر ... فحمل المسلمون من

....

(١) و (٢) التاريخ الكامل لابن الأثير ٣/٣٣ – ٣٥ . تهذيب ابن عساكر ٧/٤٠١ – ٤٠٢ .

الوجه الآخر فانهزم العدو في كل وجه ومنح الله المسلمين اكتافهم وانهزم الروم بعد أن قتل ابن الزبير « جرجير » فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة وأخذت ابنة جرجير سبية ، فنفلها ابن الزبير[1] .

عمل ابن ابي سرح بعد المعركة على تقسيم الغنائم فأخرج الخمس ، ووزع الباقي فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار ، للفرس ألفا دينار ولفارسه ألف دينار ، وللراجل ألف دينار ، وقسم لرجل من الجيش توفي بالحمى فدفع الى أهله بعد موته ألف دينار ..

– كانت ابنة جرجير لواحد من الانصار فأقبل بها منصرفاً قد حملها على بعير له وهو يرتجز :

يا ابنة جرجير تمشي عقبتك إن عليك بالحجاز ربتك
لتحملن من قباء قِربَتك

قالت ابنة جرجير : – ما يقول هذا الكلب؟ فأخبرت بذلك فألقت بنفسها عن البعير الذي كانت عليه فدقت عنقها فماتت[2] .

– أعاد ابن أبي سرح تنظيم قواته بسرعة وتوجه مباشرة الى « سبيطلة » وضرب حصاراً حولها ولم تتمكن سبيطلة من الصمود ففتحها ابن أبي سرح ودمرها.

ووجه ابن أبي سرح قواته الى الأقاليم حتى وصلت «قفصة» وهي بلدة تبعد عن القيروان ثلاثة أيام ففتحها ..

– كما وجه جيشاً الى حصن الأجم « Thysderas » فحاصره العرب المسلمون وعندما يئس السكان من الحصار خرجوا فصالحوا المسلمين ..

– وسبى المسلمون من ملوك البربر : صولات بن وزمار الزناتي ، والمغزاوي جد بني خزر – ملوك تلمسان – فرفعوه الى الخليفة عثمان رضي الله عنه فأسلم على يده فمن عليه وأطلقه وعقد له على قومه ثم رغب الفرنج والبربر في السلم وسألوا

(١) و (٢) الكامل لابن الاثير ٣ / ٢٣ – ٣٥ . فتح مصر والمغرب ٢٤٦ – ٢٤٩ . البلاذري ٢٢٧ – ٢٢٩ . الاستقصا ١ – ٦٨ . تهذيب ابن عساكر ٧ – ٤٠٢ .

الصلح ، فأجابهم المسلمون الى ذلك ، ورجع عبد الله بن سعد بن أبي سرح الى مصر بعد أن أمضى بافريقية سنة وثلاثة اشهر ..

د ـ الصلح مع النوبة :

ـ بعد فشل عقبة بن نافع في تحقيق الاستقرار الدائم مع النوبة في عهد عمرو ابن العاص ، تابع عمرو سياسته في توجيه موجات متتابعة من القوى لتأمين الحدود الجنوبية لمصر ، وعندما تسلم عبد الله بن أبي سرح ولاية مصر وقام بفتوحاته في افريقية ثم عاد الى مصر ليتابع عملياته ضد الجنوب ، وسأل اهل النوبة عبد الله بن سعد الهدنة وكانت قوات العرب المسلمين قد استولت على « دنقلة » فعقد مع اهل مقرة اتفاقية للصلح تضمن لهم الاستقلال في بلادهم وتضمن للمسلمين في الوقت ذاته الاطمئنان الى حدودهم ، وكان من نتيجة اختلاط العرب المسلمين بأهل النوبة والبجة ان اعتنق عدد كبير منهم الدين الاسلامي .. وكان نص الاتفاقية بين العرب المسلمين واهل النوبة التالي :

[... انما عاهدناكم وعاقدناكم ان توفونا في كل سنة ثلاثمائة رأس وستين رأساً . وتدخلوا بلادنا مجتازين غير مقيمين وكذا ندخل بلادكم على انكم ان قتلتم من المسلمين قتيلاً فقد برئت منكم الهدنة . وعليكم رد أباق المسلمين ومن لجأ اليكم من اهل الذمة ...] [1] .

ـ أظهر العرب المسلمون رغبة صادقة في تنفيذ بنود الاتفاقية ، وكذلك فعل أهل النوبة فخيم السلم والأمن على اقاليم مصر الجنوبية وتحقق الاستقرار الذي رغب الطرفان به ، وتوثقت عرى التعاون ، وتصاعد حجم التبادل التجاري بين اقاليم وادي النيل ..

هـ ـ قمع حركة التمرد الأولى ٣٣ هـ .

ـ نقض اهل افريقية الاتفاقية المعقودة بينهم وبين عبد الله بن سعد ، وكان

....

(١) فتوح مصر والمغرب ـ ابن الحكم ٢٥٤ .

للروم دور في التحريض على الثورة المضادة، فأسرع عبد الله بتنظيم مجموعة قتالية وتقدم في هجومه ، ونجح في احباط المقاومات التي اعترضت تقدمه ، وعندما شعر اهل افريقية انه لا قبل لهم بزحف العرب المسلمين طلبوا الصلح وأقرهم عبد الله على الصلح وعاد الهدوء والسلم يخيم على افريقية ..

٢ - معركة الأجم[1] ٤٥ هـ - ٦٦٥ م

آ - الوضع العام قبل المعركة :

- في عام ٣٤ هـ ، خرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر بقواته البحرية والتقى بأسطول الشام حيث خاضت القوات المشتركة معركة « ذات الصواري » .

- وفي الوقت ذاته توجهت مجموعة قتالية بقيادة معاوية بن حديج السكوني لمتابعة عمليات الفتح وقد ضم جيش معاوية جماعة من المهاجرين والانصار ، ففتح مناطق واسعة ، وحصل على غنائم ضخمة واتخذ قيروانا عند « القرن » وبقي فيها حتى خرج الى مصر ..

- وفي عام ٣٥ هـ ، وقعت احداث الفتنة التي انتهت بمقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان وتولى علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وانشقاق معاوية بن أبي سفيان.

- عزل الخليفة علي والى مصر عبد الله بن أبي سرح الذي سار الى عسقلان ومات فيها .. واستقل محمد بن أبي حذيفة بولاية مصر ، لكن الخليفة علي عين قيس بن عبادة الانصاري عام ٣٧ هـ ، ثم لم يلبث أن عزله بسبب تهاونه في قتال أهل « خرِبتا وفيهم بسر بن أرطأة ومعاوية بن حديج وغيرهم كثير من وجوه العرب العثمانيين » ، وجاء محمد بن أبي بكر خلفاً لقيس ، لكن الامور تطورت بسرعة ، وجاء عمرو بن العاص على رأس جيش من الشام فقتل محمد بن أبي بكر

---

(١) المصادر : الكامل لابن الاثير ٣ - ٨ - ٣٤ - ١٩٧ . ابن خلدون ٢ - ١٢٩ و ٣ - ٩ - ١٠ . فتوح مصر والمغرب ٢٦٢ - ٢٦٤ . الاستيعاب ٣ - ١٠٧٦ .

وسيطر على مصر ، وأتبعها للخليفة معاوية ، وفي عام ٤٠ هـ قتل الخليفة علي ، وانتهى الحكم للامويين .

– كان من نتيجة الانقسام بين العرب توقف اعمال الفتوحات إلا من بعض العمليات الصغرى ، ومن هذه العمليات :

– توجيه حملة بحرية عام ٣٦ هـ قوتها مائتي مركب بقيادة عبد الله بن قيس وذلك لغزو صقلية .

– قيام عقبة بن نافع عام ٣٩ هـ ، بقيادة اهل مصر لغزو الروم بحراً ..

– وعندما تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة وجـه معاوية بن حديج الى افريقية سنة ٤١ هـ فكانت هذه غزوته الثانية ، وكان معه عبدالملك بن مروان، تقدم معاوية بن حديج بجيشه حتى وصل بنزرت ففتحها وصالح اهلها .

ب – عقبة بن نافع ، وفتوحه ما بين ٤١ - ٤٥ هـ :

بقي عقبة بن نافع قائداً لحامية برقة فترة طويلة ، بدأت عام ٢١ هـ ، وبقي حتى عام ٤١ هـ ،وكان بقاؤه فترةطويلة في هذه المنطقة خير مساعد لهلاكتسابه خبرة جيدة بطبيعة المنطقة جغرافياً وبشرياً ، علاوة على ما كسبه من خبرات بقتاله مع عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ومعاويـة بن حديج السكوني ، ولهذا كان على معرفة تامة بما يجب عليه عمله عندما عينه عمرو بن العاص سنة ٤١ هـ لولاية افريقية ..

– انطلق عقبة بجيشه الى « قبائل لواتة » اكبر بطون البربر ، وكانوا قـد نقضوا العهد ، فتنحت قبائل لواتة عن « طرابلس » فقاتلهم عقبـة قتالاً ضارياً وألحق بهم الهزيمة فطلبوا الصلح ، ولكن عقبة رفض صلحهم وقال لهم :

[انـه ليس لمشرك عهد عندنا – والله عز وجل يقول في كتابه : كيـف يكون للمشركين عهد . ولكن أبايعكم على أنكم توفوني ذامتي ، ان شئنا أقررناكم وان شئنا بعناكم ..]

– بعد انتصار عقبة على « لواتة » توجه مباشرة للقضاء على تمرد « هوارة » وهذه بدورها ايضاً من اشهر قبائل البربر ، فقاتلهم ونجح في تمزيقهم واخضاعهم .

– وفي عام ٤٢ هـ ، افتتح عقبة غدامس وأباد القوات المضادة .

– وفي عام ٤٣ هـ ، افتتح عقبة كوراً من السودان ، واثخن في تلك النواحي وكان له فيها جهاد وفتوح . وبذلك امكن اعادة الاستقرار والأمن الى « افريقية » .

ج – بيزنطة تحرض على الثورة المضادة :

– عندما بلغ ملك الروم ان اهل افريقيا صالحوا المسلمين بذلك المال الذي اعطوه للمسلمين غضب عليهم وبعث بطريقاً اسمه في تواريخ الروم « نيسيفور ، او نقفور Nicephore » ، حتى يأخذ منهم مثل ذلك ، فنزل قرطاجنة ، وأخبرهم بما جاء له فأبوا وقالوا [قد كان ينبغي له أن يسعدنا فيما نزل بنا ..] فقاتلهم البطريق وهزمهم وطرد الملك « جناها – اوهباهيا – Jenaha - Habahia خليفة جرجير ، فهرب « جناها » ولحق بالشام ، وقد اجتمع الناس على معاوية ابن ابي سفيان فاستجاشه على افريقية [1] .. وشكا اليه ما ناله من صاحب قيصر .

د – ابن حديج مرة ثالثة في افريقية – معركة الأجم :

الأجم – « العجم » – كانت معروفة أيام البيزنطيين باسم « Thisderas » كمركز حربي ممتاز ، وكواحدة من « الليمات » والمواقع الحصينة التي اعتمدها البيزنطيون للدفاع عن حدودهم [2] .

– قرر الخليفة معاوية بن ابي سفيان توجيه ضربة قوية للنفوذ البيزنطي في افريقية ، فجهز جيشاً قوته عشرة آلاف مقاتل لتدمير القوة البيزنطية ، وأسند قيادته الى رجل عرف افريقية وعرفته وهو معاوية بن حديج السكوني .. وقاد ابن حديج جيشه نحو افريقية ، وقد ضم هذا الجيش جماعة من الصحابة

....

(١) الاستقصا ١ – ٦٨ – ٧٠ . الاصابة ٦ – ١١١ . البلاذري ٢٣٧ .

(٢) المجلة العسكرية ٢ – و – ٣ – ٧٤ الصادرة عن الادارة السياسية في سوريا .

والتابعين ، منهم عبد الله بن عمر بن الخطـاب وعبد الملك بن مروان ، وذلك سنة ٤٥ هـ ، وكانت هذه المرة الثالثة التي يقود فيها ابن حديج عمليات هجومية في افريقية ..

– عندما وصل الجيش الى مصر توفي « هباهيا » ولم يقـدر له العودة الى ملكه ، وتابع ابن حديج تقدمـــه وكانت افريقية تضطرم ناراً حتى وصل « قمونية » – في موضع القيروان – فتوقف واخذ يجمع المعلومات عن خصمه ..

– كان ملك « سبيطلة » على رأس ثلاثـــين الف مقاتل وجههم القيصر من القسطنطينية في البحر لمدافعة العرب المسلمين عن افريقية ، وعندما علـم ملك سبيطلة بتقدم العرب المسلمين دفع قواته الى « الأجم » وتحصن بها ..

– توجـه ابن حديج بجيشه الى « الأجم » واصطدمت قواتـه بالقوات البيزنطية ، وبعد معركة قاسية نجح ابن حديج في انتزاع النصر وتدمير قوات خصمه تدميراً تاماً ..

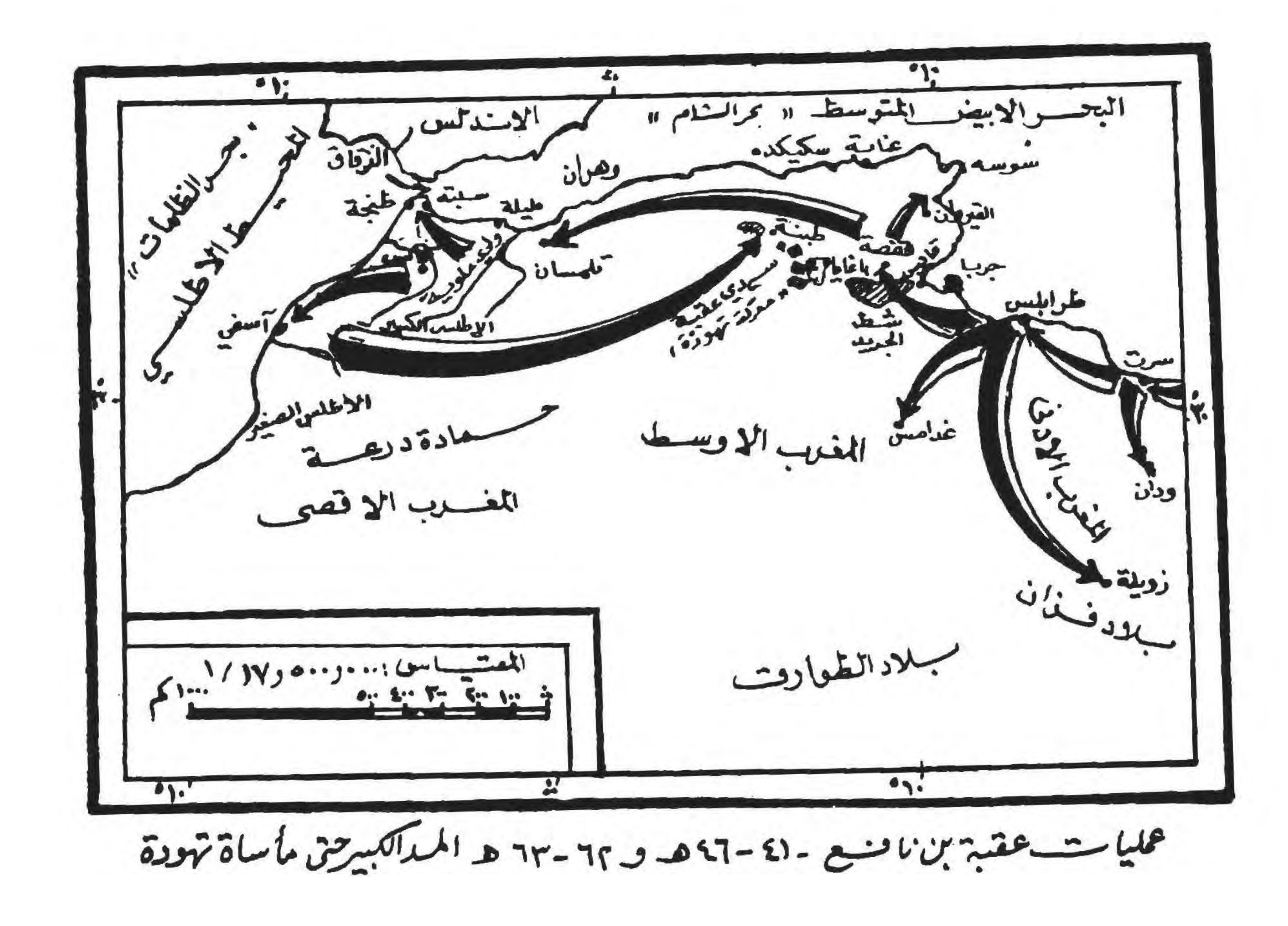
هـ - استثمار الظفر :

– كان النصر الذي حققه معاوية بن حديج في ميدان القتال نصراً حاسماً ، فقد نجح في تحطيم قوات تتفوق عليه بمعدل ثلاثة الى واحد ، علاوة على انهـــا كانت تخوض معركة دفاعية في حين كان معاوية يخوض معركة هجومية ، وأسرع معاوية لاستثمار هذا النصر ..

[فبث السرايا ودوخ البلاد فبعث عبد الله بن الزبير الى سوسة فافتتحها ، وبعث رويفع بن ثابت الأنصاري بحراً الى جربة ، وهي جزيرة في تونس قرب قابس كان يسكنها البربر ، فافتتحها ثم عاد ادراجه الى طرابلس الغرب التي كان اميراً عليها ، وبعث عبـد الملك بن مروان الى جلولاء في الف رجـل[1]

....

(١) جلولاء : مدينة شهيرة بافريقية الشمالية وهي غير جلولاء العراق ، تقع في تونس بينها وبين القيروان اربعة وعشرون ميلا ، وبها آثار وابراج من أبنية الأول .



عمليات عقبة بن نافع ٤١-٤٦ هـ و ٦٢-٦٣ هـ المد الكبير حتى مأساة تهودة

فحاصرها اياماً فلم يصنع شيئاً، فانصرف راجعاً فلم يسر الا يسيراً حتى رأى في ساقة الناس « المؤخرة » غباراً شديداً فظن أن العدو قد طلبهم فكر جماعة من الناس لذلك وبقي من بقي على مصافهم ، وتسرع سرعان الناس « وهم جماعة الفرسان الخفيفة » فاذا مدينة جلولاء قد وضع حائطها فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها وانصرف عبد الملك الى معاوية بن حديج الذي وزع الغنائم..

قال عبد الملك بن مروان : وأخذت لفرسي ولنفسي ستمائة دينار ، واشتريت بها جارية] [1] .

– استقر معاوية بن حديج بعد ذلك في جبل (القرن) – وسلات حالياً – واحتفر بها آباراً حملت اسم « آبار حديج » خارج باب تونس منحرفة عنه الى الشرق . وتابع مهمته التوجيهية ، فظهر الاسلام في البربر ثم عاد الى مصر بعد أن استقر في القرن ثلاث سنين ، وخلف في افريقية آثاراً حسنة ..

٣ – المد الكبير

آ – الفتوح ما بين عام ٤٦ هـ – ٦٢ هـ :

– كان لاستقرار الوضع دوره في حفز القادة لتطوير عملياتهم القتاليــــة ، وتحقيق الاستقرار ، فانطلق عقبة بن نافع ومعه بسر بن أرطاة وشريك بن سمي المرادي في اتجاه الجنوب مستفيداً من العمليات التي كان يمارسها معاوية بن حديج في القضاء على ثورة القبائل المتمردة ..

– علم عقبة بن نافع ان (مغداش) و (ودان) [2] قد رفضتا ما كانتا تلتزمان بتقديمه وفق معاهدتهم مع بسر بن أرطاة عام ٢٣ هـ ..

---

(١) فتح مصر والمغرب ، ابن الحكم ٢٦٢ . الاستقصاء ١ - ١٦٩ - ١٧٠ . البلاذري ٢٣٧ . الاصابة ٦ - ١١١ .

(٢) ودان : مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية ويتبعها زلة وهون وسوكنة وبما جاورها ويطلق على الكل بلاد ودان ، وتقع ودان في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بمسافة ٧٦٩ كم تقريباً والى جنوب « سرت » بمسافة ٢٨٠ كم تقريباً .

– في عام ٤٦ هـ ، وصل عقبة بن نافع بجيشه الى «مغداش»[١] من «سرت»[٢] ففتحها، وترك قواته واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي ثم سار بنفسه وبمن خف معه ، اربعمائة فارس واربعمائة بعير وثمانمائة قربة « للمياه على كل بعير قربتين » وتوجه الى ودان ..

– كان أهل « ودان » قد تحصنوا ، وعرض عليهم عقبة الاستسلام ، فأبى أهلها إلا العصيان وعدم الطاعة ، فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلداً بلداً وقبض على ملكهم فجدع أذنه فقال : « لِمَ فعلت هذا بي ؟! » فقال عقبة : « فعلت هذا بك أدباً لك ، إذا مسست اذنك ذكرته فلا تحارب العرب ! » واستخرج منهم ما كان بسر بن أرطاة فرضه عليهم ..

– بعد ان انتهى عقبة من اعادة الأمن والنظام الى « ودان » سأل أهلها : [.. هل من ورائكم أحد ؟!] فقيل له « جرمة »[٣] وهي مدينة فزان العظمى .. فسار اليها ثماني ليال من ودان ، فلما دنا منها أرسل فدعاهم الى الاسلام فأجابوا فنزل منها على ستة أميال ، وخرج ملكهم يريد عقبة وأرسل عقبة خيلاً فحالت بين ملكهم وبين موكبه فأمشوه راجلاً حتى أتى عقبة وقد لغب ، فتعب واصابه الاعياء ، وكان ناعماً فجعل يبصق الدم فقال له: لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعاً ؟ فقال عقبة : « أدباً لك ، اذا ذكرته لم تحارب العرب » وفرض عليهم الجزية[٤] ..

ووجه عقبة الرجل من يومه ذلك الى المشرق ، ثم مضى على جهته من فوره الى قصور فزان فافتتحها قصراً قصراً حتى انتهى الى اقصاها فسألهم : [هل من

(١) مغداش : بلد قريب من « سرت » في طرابلس الغرب بليبيا .
(٢) سرت : مدينة قريبة مكانها الآن مدينة تونس بشمال افريقيا وكانت محطاً للقوافل وسوقاً للتجارة ، وبلغت اوج ازدهارها وعزها ايام ملوك الاغالبة في القرن التاسع الميلادي .
(٣) جرمة : اسم قصبة بناحية فزان ، وكانت عاصمة فزان ايام الفتح الاسلامي .
(٤) فتوح مصر والمغرب ٢٦٢ . الاستقصاء ١ - ٧١ .

ورائكم احداً ؟!..] قالوا نعم أهـــل « خاور[1]» وهو قصر عظيم على رأس المفازة في وعورة على ظهر جبل وهو قصبة كوار[2] ، فســار اليها خمس عشرة ليلة فلما انتهى تحصنوا ، فحاصرها شهراً فلم يستطع لهم شيئاً ، فمضى أمامه على قصور كوار فافتتحها حتى انتهى الى اقصاها وفيها ملكها فأخذه فقطع أصبعه فقال : لِمَ فعلت هذا بي ؟ قال : [أدباً لك حتى اذا انت نظرت الى اصبعك لم تحارب العرب ..] فسألهم : [.. هل من ورائكم أحد ؟..] واجابه الدليل ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة فانصرف عقبة راجعاً ، فمر بقصر « خاور » فلم يعرض له ولم ينزل بهم ، وسار ثلاثة ايام ، فأمنوا ، وفتحوا مدينتهم ..

أقام عقبة بمكان اسمه اليوم « ماء فرس » ولم يكن بـه ماء فأصابهم عطش شديد ، أشفى منه عقبة واصحابه على الموت ، وجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض حتى كشف عن صفاة ، فانفجر فيها الماء ، فجعل الفرس يمص ذلك الماء فأبصره عقبة فنادى في الناس ان احتفروا فحفروا سبعين حسياً[3] فشربوا واستقوا ، فسمي لذلك « ماء فرس » .

– رجع عقبة بعد ذلك الى خاور من غير طريقه التي كان أقبل منها ، فـلم يشعروا به حتى طرقهم ليلاً فوجدهم مطمئنين قـد تمهدوا في أسرابهم فاستباح ما في المدينة من ذرياتهم واموالهم وقتل مقاتلتهم ..

– انصرف عقبة بعدها راجعاً فسار حتى نزل بموضـع « زويلة » اليوم ثم ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر وقد جَمَّتْ خيولهم وظهورهم .

– عندما أنهى عقبة فتح المناطق الصحراوية وأخضع القبائل المتمردة وضع مخططه لمتابعة العمليات على المحور الساحلي ، فسار متوجهاً الى المغرب وجانب

---

(١) خاور : مدينة كبيرة جنوبي فزان بليبيا .

(٢) كوار : كذا في الاصل ، ذكرت في معجم البلدان كاوار ، وهي كورة جنوب فزان مركزها خاور .

(٣) الحسي : البئر قليل العمق .

الطريق الأعظم وأخذ الى أرض مزاتة فافتتح كل قصر بها ثم مضى الى صغر[1] فافتتح قصورها وقلاعها .. وبعث خيلاً الى « غدامس » فافتتحها ولما رجعت هذه القوة من الفرسان سار الى قفصة [2] فافتتحها ، ثم افتتح مصطيلية [3] ثم انصرف الى القيروان بعد أن أنهى عملياته في الحدود « التونسية » ..

ب - « القيروان » قاعدة متقدمة للعمليات :

كان معاوية بن حديج قد اختط القيروان في موضع القرن وعندما وصل اليه عقبة ودرس موقعه لم يعجبه لأسباب عديدة منها :

١ً - كان يرغب في بناء القيروان ان تستند الى الجبل حتى تستفيد من صعوبته للحماية ..

٢ً - وكان يرغب دفع المدينة في اتجاه الصحراء ، اذا لم يتحقق الشرط الأول نظراً لما يعرفه العرب من اساليب حرب الصحراء وتوافقها مع طبيعتهم ..

٣ً - وعلاوة على ذلك فقد كان عقبة يرغب في ابعاد « القيروان » عن المدن والمناطق المأهولة بالسكان للمحافظة على الأمن .

وتظهر الحوافز التي دفعت لبناء قاعدة متقدمة من خلال حديثه الى قادته وجنده حيث قال لهم :

[... ان افريقية اذا دخلها إمام أجابوه للاسلام فاذا تركها رجع من كان اجاب منهم لدين الله الى الكفر فأرى لكم يا معشر المسلمين ان تتخذوا مدينة تكون عزاً للاسلام الى آخر الدهر ..]

- واتفق الناس على ذلك ، وأن يكون اهلها مرابطين قرب البحر ليتم لهم الجهاد والرباط ، وقال لعقبة بعض اصحابه :

[قربها من البحر ليكون اهلها مرابطين ..] وإجابهم [اني اخاف ان

---

(١) صغر : اسمها الحالي صفرو مدينة في شمال المغرب، في قلب جبال أطلس الوسطى.

(٢) مدينة في تونس ، بينها وبين القيروان ثلاثة ايام ، كان لها اهمية كبرى في عهد الرومان.

(٣) تقع في اقصى بلاد المغرب على حدود الصحراء .

يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها ؛ ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها معه صاحب البحر ، لأن صاحب المركب لا يظهر من اللجة حتى يستره الليل فهو يسير الى ساحل البحر الى نصف الليل ، فيخرج فيقيم في غارته الى نصف النهار فلا تدركها منه غارة ابداً ، فان كان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير ، فأهلها مرابطون ، ومن كان على البحر فهم حرس لهم وهم عسكر معقود الى آخر الدهر وميتهم في الجنة] .

– وبدأ البحث عن الموقع المناسب ، وأشرف عقبة وجيشه على الموقع الذي بنيت فيه القيروان فركز رمحه وقال هذا قيروانكم [1] ، وكان وادياً كثير الشجر كثير القطف تأوي اليه الوحوش والسباع والهوام ، واقام ثلاثة ايام وامر الناس بالتنقية والخطط ، واراد عقبة تقريب المدينة من السبخة ، فقالوا له :

[نخاف ان تهلكنا الذئاب ويهلكنا بردها في الشتاء وحرها في الصيف] فقال : [لا بد لي من ذلك ، لأن اكثر دوابكم الابل وهي التي تحمل عسكرنا ، والبربر قد تنصروا ، ونحن اذا فرغنا من امرها لم يكن لنا بد من المغازي والجهاد ونفتتح الأول منها فالأول فتكون ابلنا على باب مصرنا في مرعاها آمنة من غارة البربر والنصارى ..]

....

(١) تذكر المصادر ان الرجال اجابوا عقبة عندما قال لهم هذا قيروانكم بما يلي :
(.. انك أمرتنا بالبناء في شعار وغياض لا ترام ، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من دواب الأرض . وكان في عسكره خمسة عشر رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر ذلك تابعون ، فدعا الله عز وجل وجعل اصحابه يؤمنون على دعائه ؛ ومضى الى السبخة وواديها ونادى (ايتها الحيات والسباع ، نحن اصحاب رسول الله ، فاظعنوا انا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه) . ونظر الناس بعد ذلك الى أمر معجب من أن السباع تخرج من الشعار تحمل اشبالها والذئب يحمل جروه والحيات تحمل أولادها ، ونادى في الناس « كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا » فلما خرج ما فيها من الوحش والهوام وهم ينظرون اليها نزل عقبة الوادي وأمرهم ان يقطعوا الشجر ..) . المصادر : فتح مصر والمغرب ٢٦٥ - ٦٦ . رياض النفوس ١ - ٦ - ٧ . اسد الغابة ٣ - ٤٢٠ - ٢١ . الكامل لابن الأثير ٣ - ١٨٤ .

- كان مع عقبة عشرة آلاف فارس ، وانضم اليه من أسلم من البربر ،فكثر جمعه ، وبدأ العمران عام ٥٠ هـ ، واستمرت عملية البناء خمسة اعوام ، ونقل الناس من الموضع الذي كان معاوية بن حديج نزله الى مكان القيروان الجديدة .. وكان محيطها ثلاثة آلاف وستمائة باع، فأصبحت المدينة عسكراً للمسلمين وأهلهم وأموالهم يأمنون من ثورة تكون من اهل البلاد ، فقوي جنان من هناك من الجنود وثبت الاسلام فيها ، وكان عقبة في اثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتنهب ودخل كثير من البربر في الاسلام واتسعت خطة المسلمين ورسخ الدين ، وصارت القيروان مدينة كبيرة وعاصمة الاسلام في المغرب .

- أصبحت افريقية في هدوء بعد اضطراب وفي أمن بعد خوف وفي سلم بعد حرب ، وبدىء العمل لبناء قاعدة متقدمة يمكن الانطلاق منها نحو آفاق اكثر اتساعاً للتوغل غرباً ومتابعة الفتوح لكن أحداثاً طرأت على الموقف وكان لها دورها في مسيرة الأحداث ..

- في عام ٥٥ هـ ، أصدر معاوية بن ابي سفيان أمره بتعيين مسلمة بن مخلد الانصاري على مصر وافريقية ، مكافأة له على مواقفه المؤيدة لعثمان والامويين ، ووفاء بحقه عليه . وعمل مسلمة على عزل عقبة بن نافع عن ولاية افريقية وتعيين ابو المهاجر دينار بديلاً له ، وقيل لمسلمة : [**لو أقررت عقبـة فان له جزالة وفضلاً**] فقال مسلمة : [**ان ابا المهاجر صبر علينا في غير ولاية ولا كبير نيل فنحن نحب أن نكافئه**] ، وهكـذا لم يعزل معاوية او مسلمة عقبة عن افريقية لريبة أو تقصير .

وتوجه ابو المهاجر الى افريقية ، وألقى القبض على عقبة فسجنه وأوقره حديداً حتى أتاه كتاب معاوية بن ابي سفيان بتخلية سبيله وإشخاصه اليه ..

سار عقبة الى الشام ، وعاتب معاوية فاعتذر معاوية اليه ..

- في عام ٦٢ هـ ، توفي مسلمة بن مخلد .. وشعر يزيد ان الموقف في مصر

وافريقية ستفاقم خطورة فقال: [**ادركوا افريقية قبل ان يخربها ابو المهاجر..**]
واصدر امره باعادة تعيين عقبة لولاية افريقية..

ج - ابو المهاجر وأعمال الفتوح :

- خلال الفترة مابين ٥٥ - ٦٢ هـ ،تولى ابو المهاجر دينار ولاية افريقية، وقام بمجموعة من الاعمال القتالية التي أوصلت المد العربي الاسلامي حتى الجزائر « المغرب الاوسط » .

- عندما وصل ابو المهاجر (افريقية) كره أن ينزل في الموضع الذي اختطه عقبة بن نافع ، ومضى عن القيروان حتى خلفها بميلين فابتنى ونزل ، واخذ في تنظيم جيشه والاستعداد للمعارك المقبلة..

- كانت قرطاجنة عاصمة الروم - بيزنطة - في شمال افريقية ،وكانت سيطرة الروم لا زالت قوية على الساحل الشمالي لافريقية ما بين بنزرت [١] وطنجة ، وكان هذا الوجود البيزنطي مصدر قلق العرب المسلمين باستمرار نظراً لما كان يقوم به هذا الوجود من تحريض على الثورة المضادة ، ومن تأمين مجال حيوي للبيزنطيين في القسطنطينية ، فوضع ابو المهاجر هدفه الاول لضرب النفوذ البيزنطي والهجوم على قرطاجنة [٢] .

- تحرك ابو المهاجر بجيشه حتى هدفه الأول فوجد أن قرطاجنة قد تحصنت بالأسوار العالية وتحصنت ، فشدد ابو المهاجر عليهم الحصار ، وعرفت الحامية المدافعة عن المدينة في المسلمين تصميمهم على الاستمرار في الحصار ومتابعة القتال حتى النصر ، فعرضوا على المسلمين الصلح ، واشترط ابو المهاجر لقاء الصلح جلاء الحامية المدافعة عن « شبه جزيرة شريك » وذلك لأن الروم كانوا يستخدمون موقع شبه الجزيرة لحشد قواتهم ، وكان لها ايضاً اهمية كبرى كقاعدة متقدمة

---

(١) بنزرت : مدينة بينها وبين تونس يومان أما طنجة فبينها وبين سبتة مسيرة يوم واحد .
(٢) المصادر : فتوح مصر والمغرب ٦٦٦ . الاستقصا ١ - ٧١ .

وكمركز مراقبة يمكن بواسطتـــه حماية قوة العرب المسلمين العاملة على المحور الساحلي . وقبل الروم شروط ابو المهاجر وتم عقد الصلح بين الطرفين . .

– وضع ابو المهاجر [**هدفه الثاني**] الاستيلاء على (ميْله) [1] نظراً لموقعها المتوسط بين المغربين الأدنى والأوسط، وأهميتها بالتالي لمراقبة واستطلاع تحركات البربر والروم . وعندما أنهى ابو المهاجر استعداده توجه غرباً مع محاذاة الساحل . ولم يعترض تقدمه مقاومه تذكر حتى وصل (ميله) فوجد الروم والبربر وقـد تحصنوا بها وامتنعوا وراء أسوارها . وضرب أبو المهاجر حصاراً دقيقاً حتى اتيحت له الفرصة ففتحهـا . واستقر فيها ، وأخذ ينشر الدعوة الاسلامية بين القبائـل البربرية ويشرح لها اسس الدين وتعاليمـه ونجح في اجتذاب عدد كبير من افراد هذه القبائل طوال فترة السنتين اللتين قضاها في « ميله » – .

– وأصبح [**الهدف الثالث**] عند أبو المهاجر . هو الاستيلاء على تلمسان [2] .

– كان كسيله ابن لمزم الأوربي زعيم قبيلة « أوْربَة » قوي الشخصية وكانت قبيلته من اكبر القبائل في المغربين الأدنى والاوسط . وعندما علم كسيله أن أبا المهاجر قـــد وصل ميله واستقر بها . انطلق الى البربر يدعوهم لحرب العرب واجلائهـم عن افريقية . واجتمعت كلمة البربر تحت قيادته ، ودعمه الروم البيزنطيون واخذ كسيله في الاستعداد للحرب وجعل من تلمسان مقراً له – .

– لم ينتظر أبو المهاجر قيام كسيله بالهجوم على قواته ، فتحرك بجيشه حتى وصل « تلمسان » حيث التقت قوات العرب المسلين بجيش كسيله . ودارت رحى معركـــة طاحنة . قاتل فيها جيش كسيلة بعناد وضراوة وصبر جيش العرب المسلمين حتى استطاعوا انتزاع النصر ، وأمكن لهم تمزيق قوات خصومهم وأسر

---

(١) ميلة : مدينة صغيرة بأقصى افريقيـــة الى الجنوب الشرقي من بجاية وبينها ثلاثة ايام (خمسين ميلا تقريباً) معجم البلدان ٨ – ٢٢٦ .

(٢) تلمسان : مدينة بالمغرب كان اسمها « أقادير » وتقع على بعد مرحلة من وهران . معجم البلدان ٢ – ٤٠٩ .

كسيله حيث حمل الى ابي المهاجر الذي احسن اليه ، وأكرمه وقربه وكان لذلك اثره في نفسية « كسيلة » فأشهر الاسلام واستبقاه ابو المهاجر واستخلصه - .

ثم تابع ابو المهاجر تقدمه لاخضاع القبائل حتى وصل الى العيون المعروفة بعيون أبي المهاجر حيث صالح القوات البيزنطية والقبائل البربرية - [1] .

- توقف تقدم ابو المهاجر عند حدود « المغرب الأوسط » وقرر العودة الى القيروان - بعد ان حقق منجزات رائعة وفرض سيطرة العرب المسلمين ولأول مرة على منطقة المغرب الأوسط - .

عقبة يتابع ثانية فتوحاته

أصدر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان أمره بتعيين عقبة لولاية افريقية ، عام ٦٣ هـ فسار عقبة من الشام الى افريقية مباشرة بقوة عشرة آلاف مقاتل ،وعندما وصل (القيروان) - أخذ ابا المهاجر وحبسه وقيده وأخذ ما معه من الأموال وخرب مدينته وعمر القيروان وعزم على الجهاد فدعا أولاده وقال لهم : -

[.. يا بني ، أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها ، اياكم ان تملأوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن فان القرآن دليل على الله عز وجل ، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق ، ثم انتهوا عما وراءه . وأوصيكم ألا تدينوا ولو لبستم العباء فان الدين ذل بالنهار وهم بالليل فدعوه تسلم لكم اقداركم وأعراضكم وتبق لكم الحرمة في الناس مابقيتم. ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى ، ولا تأخذوا دينكم الا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا ..

ثم قال : « عليكم سلام الله ، وأراكم لا تروني بعد يومكم هذا .. »

(١) المصادر : تاريخ المغرب الكبير ٢ / ٣٤ - ٣٨ . الاستقصا ١ / ٧١ - ٧٢ . فتوح مصر والمغرب ٢٦٧ .

ثم قال : — [اللهم تقبل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك] . [1]

أنهى عقبة استعداده القتالي ، ودفع بزهير بن قيس البلوى على مقدمته وسار بجيشه ففتح حصن لميس — وتابع زحفه لا يدافعه أحد والروم يهربون في طريقه يميناً وشمالاً حتى وصل (باغاية) [2] فحاصرها وقد اجتمعوا بها وقاتلهم قتالاً شديداً فانهزموا عنه وقتل منهم قتلاً ذريعاً ، وغنم منهم غنائم كثيرة واحتمى المنهزمون داخل أسوار المدينة فكره المقام عليهم .

— كانت (تلمسان) [3] من اعظم مدائن المغرب وكانت تدافع عنها حامية قوية ، وانضم الى الحاميـــة الروم والبربر ، فتوجه عقبة لقتالهم وخرج الروم والبربر للقائه في جيش كبير ، والتحم القتال حتى ظـن المسلمون أنه الفناء ، ولكنهم صبروا وهاجموا الروم هجوماً عنيفاً حتى الجأوهم الى حصونهم وقاتلوهم على أبوابها واصابوا منهم غنائم كثيرة ..

— تابع عقبة زحفه الى بلاد الزاب وكانت (أرَبَة) دار ملكهم واعظـم مدينة لديهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة فامتنع بهـا من هناك من الروم والنصارى وهرب بعضهم الى الجبال ، فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم ..

— وصل عقبة في مسيرته الشاقة والطويلة حتى وصل « تاهرت » [4]. وكانت

....

(١) رياض النفوس ١ — ٢٢ .

(٢) يطل جبل أوراس على باغاية .. وباغاية الغين معجمة وألف وباء ، مدينة كبيرة في أقصى افريقية بين مجانة وقسنطينة . معجم البلدان ١ — ٣٢٥ .

(٣) تلمسان : مدينة بالمغرب اسمها القديم : أقادير ، على بعد مرحلة من وهران . معجم البلدان ٢ — ٤٠٩ .

(٤) تاهرت : اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب . معجم البلدان ٢ — ٣٥٤ .

المصادر : الكامل لابن الأثير ٤ — ٤٢ والاستقصا ١ — ٧٢ .

حاميتها من الروم قد استنجدت بالبربر فأغاثوهم وأنجدوهم وكثر جمعهم فقام عقبة في الناس خطيباً وقال :

[.. أيها الناس : ان أشرافكم وخياركم : بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على من كفر بالله إلى يوم القيامة وهم أشرافكم والسابقون منكم الى البيعة ، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة ، وأنتم اليوم في دار غوبة ، وانما بايعتم رب العالمين وقد نظر اليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد الا طلباً لرضاه واعزازاً لدينه فأبشروا ! فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل ان شاء الله تعالى . وربكم عز وجل لا يسلمكم ، فالقوهم بقلوب صادقة فان الله عز وجل جعلكم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين ، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ..]

و التقى المسلمون بأعدائهم وكانت معركة طاحنة في تاهرت اظهر فيها المسلمون من الصبر بقدر ما أظهر خصومهم من عناد ، وتفوق المسلمون بايمانهم على تفوق عدوهم وكثرة عدده ، ونجحوا في انتزاع النصر وانهزم الروم والبربر وكثر فيهم القتل وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم .

– تابع عقبة زحفه حتى وصل طنجة فحاصرها واستنزل ملكها ليليان أمير غمارة [1] فنزل على حكمه ولاطفه وهاداه .

– اراد عقبة بعد ذلك اللحاق بالجزيرة الخضراء من عدوة الأندلس فقال له ليليان : –

[.. أتترك كفار البربر خلفك وترمي بنفسك في بحبوبة الهلاك مع الفرنج ويقطع البحر بينك وبين المدد ؟ فقال عقبة : – وأين كفار البربر ؟ فقال ببلاد – السوس – وهم أهل نجدة وبأس . قال عقبة وما دينهم ؟ قال ليس

---

(١) جاء في تاريخ المغرب الكبير ٢ – ٤٤ ان يليان الغماري من البربر في حين ذكر في فتح العرب للمغرب ١٩٢ انه قوطي من اسبانيا وهو الأصح على ما يذكره مؤرخو الأندلس .

لهم دين ولا يعرفون أن الله حق وانما هم كالبهائم . وكانوا على دين المجوسية يومئذ ..]

– كانت (وليلى) الواقعة بازاء جبل زرهون من أكبر مدن المغرب يومئذ فيما بين النهرين العظيمين « سبو – و – ورغة » وهي المسماة اليوم بلسان العامة بقصر فرعون – فتوجه عقبة نحوها وافتتحها عنوة – .

– ثم توجه عقبة الى « درعة [1] والسوس » فلقيه جموع البربر فاقتتلوا قتالاً شديداً وانهزمت البربر بعد حروب صعبة وقتلهم المسلمون قتلاً ذريعاً وتبعوا آثارهم الى صحراء لمتونة لا يلقاهم احد الا هزموه – .

– وتوجه بعد ذلك عقبة في اتجاه المحيط حتى وصل «آسفي» وأدخل قوائم فرسه في البحر « المحيط الأطلسي » ووقف ساعة ثم قال لأصحابه : –

ارفعوا أيديكم ففعلوا وقال : –[.. اللهم اني لم أخرج بطراً ولا أشراً وانك لتعلم انما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تعبد ولا يشرك بك شيء . اللهم انا معاندون لدين الكفر ومدافعون عن دين الاسلام ، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والاكرام] ثم انصرف راجعاً .

وصل عقبة في طريق عودته الى جبال « درن » وقاتل المصامدة بها فكانت بينه وبينهم حروب قاسية ، وحاصروه بجبل « درن » فنهضت اليهم « جموع زناتة » وكانوا خالصة للمسلمين منذ اسلام مغداوة – فأفرجت المصامدة عن عقبة وأثخن فيهم حتى حملهم على طاعة الإسلام ودوخ بلادهم ثم أجاز الى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة – أهل اللثام – وهم يومئذ على دين المجوسية ولم

....

(١) درعة : مدينة صغيرة بالمغرب ، تقع الى الغرب من سجلماسة بأربعة فراسخ « معجم البلدان – » .

المصادر : الاستقصاء ١ – ٧٣ . التاريخ الكامل لابن الاثير ٤ – ٣ ؛ ٤ . رياض النفوس ١ / ٢٣ – ٢٤ .

يدينوا بالنصرانية فأثخن فيهم وانتهـــى الى « تارودنت » وهزم جموع البربر وقاتل « مسوفة » من وراء السوس ثم قفل راجعاً – .

هـ – تهوذة « المأساة » – ٦٣ هـ – ٦٨٣ م [١]

كان كسيلة الأوربي في جيش عقبة قد استصحبه في غزواته هذه – وكان قد اضطغن عليه صحبته لأبي المهاجر ونكبه وكان يستهين به ويمتهنه فأمره يومـاً بسلخ شاة بين يديه فدفعها كسيلة الى غلمانه فاراده عقبة ان يتولاها بنفسه وانتهره فقام اليها كسيلة مغضباً وجعـل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته . والعرب يقولون ما هذا يا بربري ؟ – فيقول : – هو أجير . فيقول لهم شيخ منهم : – ان البربري يتوعدكم – وبلغ ذلك أبا المهاجر وهو معتقل عند عقبة فبعث اليـه ينهاه ويقول : –

[كان رسول الله ﷺ يستألف جبابرة العرب وأنت تعمد الى رجل جبار في قومه وبدار عزه ، حديث عهد بالشرك فستفسده ..]

وأشار عليه بأن يتوثق منه وخوف غائلته . فتهاون عقبة بقوله ...

– وصل عقبة في طريق عودته الى « طبنة » من أرض الزاب وكسيلة اثناء هذا كله في صحبته . وصرف العساكر إلى القيروان ، أفواجاً متتابعة ثقة منـه بما حققه من الفتوحات . ولم يبق معه الا قليل من الجند لا يزيد على ثلاثمائة . فلما وصل الى « تهوذة » وأراد أن ينزل بها الحامية نظر اليه الفرنجة وطمعوا فيه ، فراسلوا كسيلة ودلوه على الفرصة فيـه فانتهزها وراسل بني عمه ومن تبعهم من البربر فاتبعوا أثره . وعـلم أبو المهاجر بالأمر فأرسل الى عقبـة يقول له : **[عاجله قبل أن يقوى جمعه]** . وأسرع عقبـة حتى التقى بكسيلة عنـد

....

(١) تهوذة : مدينة في جنوب جبال اوراس الى الجنوب الشرقي من مدينة « طبنة » وتبعد عنها ٥٠ كم تقريباً . وهناك قبيلة من البربر ايضاً تحمل هذا الاسم . معجم البلدان ٢ – ٤٣٨ وتاريخ المغرب الكبير ٢ – ٤٦ .

« تهوذة » وشعر ان نتيجة المعركة لن تكون لصالحه . وبلغه ان ابا المهاجر يتمثل في قيوده بقول ابو المحجن الثقفى يوم القادسية :

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا وأترك مشدوداً علي وثاقيا
اذا قمت عناني الحديد وأغلقت مصارع من دوني تصم المناديا ..

فتأثر عقبة وقال [أطلقوا أبا المهاجر] ثم قال له :

[.. الحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين وأنا اغتنم الشهادة] فقال ابو المهاجر : [وانا اغتنم الشهادة مثلك ..][1]

– نزل عقبة والقوة الباقية معه عن خيولهم – وكسروا اجفان سيوفهم – واندفعوا بايمان وتصميم حتى قتلوا جميعاً وفيهم كبار الصحابة والتابعين – وقاتل ابو المهاجر في هذه المعركة بشجاعة وعناد حتى استشهد ووقع عدد من الصحابة في الأسر منهم محمد بن اوس الانصاري ويزيد بن خلف العبسي ونفر معها ففداهم ابن مصاد صاحب قفصه وبعث بهم الى القيروان – .

– جمعت اجداث الصحابة فيما بعد وبني لهم قبور – ثم شيد مسجد لا زال مزاراً – والواقع **[ان المسجد الذي يضم رفاته في المنطقة التي تحمل اسمه « سيدي عقبة » جنوبي سكرة ، هو اقدم أثر من فن العمارة الاسلامية في افريقية ، ويعود الى وقت كانت فيه العمارة لا تزال بسيطة بدائية ..]**[2] .

– زحف كسيلة بعد الوقعة الى جهة القيروان ان هي دار الامارة بالمغرب يومئذ وبها جمهور العرب ووجوه الاسلام فبلغهم الخبر وعظم عليهم الأمر – فقام زهير بن قيس البلوي فيهم خطيباً وقال :

[.. يا معشر المسلمين ، ان اصحابكم قد دخلوا الجنة فاسلكوا سبيلهم او يفتح الله عليكم ..]

---

(١) المصادر : التاريخ الكامل لابن الاثير ٤ – ٤٣ ، الاستقصاء ١ – ٧٤ ، رياض النفوس ١ – ٢٥ .

(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية – بروكلمان – ١ – ١٥٢ .

فخالفه حنش بن عبدالله الصنعاني لما علم انه لا طاقة للمسلمين بما دهمهم من أمر البربر – ورأى النجاة بمن معه من المسلمين أولى – ونادى في الناس بالرحيل الى مشرقهم . فاتبعوه الا قليلاً منهم وبقي زهير في أهل بيته فاضطر الى الخروج وسار إلى برقة فأقام بها مطلاً على المغرب ومنتظراً المدد من الخلفاء .

– اجتمع الى كسيلة جميع اهل المغرب من البربر والفرنجة [**ودفعه هؤلاء الفرنجة لينظم بالاتفاق مع الحاميات البيزنطية الباقية في البلاد المقاومة ضد العرب**] (١) ، فعظم أمره، وتقدم الى القيروان فاستولى عليها في المحرم سنة ٦٤هـ . وفر منها بقية العرب فلحقوا بزهير، ولم يقم بها الا أصحاب الذراري والأثقال . فأمنهم كسيلة وثبتت قدمه بالقيروان واستمر أميراً على البربر ومن بقي بها من العرب خمس سنين . وقارن ذلك مهلك يزيد بن معاوية وفتنة الضحاك بن قيس مع مروان بن الحكم بمرج راهط من أرض الشام وحروب آل الزبير فاضطرب أمر الخلافة بالمشرق . واضطرم المغرب ناراً ، ونشبت الردة في « زناتة » و « البرانس » الى أن استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة ، وأذهب آثار الفتنة من المشرق فالتفت الى المغرب وتلافى أمره – . (٢)

٤ – معركة « مَمَس » ٧١ هـ – ٦٩٠ م (٣)

آ – الوضع العام :

أصيب المسلمون بخيبة أمل مريرة بعد معركة « تهوذة » وكان مقتل عقبة بن نافع قد ترك جرحاً عميقاً في النفوس لا سيما وان توافقت هذه النكسة قد جاء مع

....

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية - بروكلمان - ١ - ١٥٢ .

(٢) الاستقصاء ١ – ٧٥ . الكامل لابن الأثير ٤ – ٣ ؛ .

(٣) ممس ، أو ممش كما جاء في ابن الأثير ، وتقع في هضبة الى الجنوب الشرقي من جبال أوراس .

– الكامل لابن الاثير ٤ / ٤٣ – ٤٤ . الاستقصاء ١ – ٨١ . فتح العرب للمغرب ٢١٣، – ٢٢٧ و ٢٦٢ – ٢٦٤ .

انتكاسة اخرى تمثلت في انقسام الجبهة الداخلية بعـد وفاة يزيد بن معاوية – .

– عانى العالم العربي الاسلامي من التمزق والاضطراب طوال الفترة ما بين عام ٦٣ هـ و٦٨ هـ ، حتى انتهى الأمر الى عبـد الملك بن مروان الذي استطاع اخماد الفتن والقضاء على الثورات واعادة جمع شمل الأمة وتوحيدها ـ وعندما تم له ذلك أصبح في وضع يسمـح له باعادة فرض سيطرة الدولة وتعزيز مكانتها ـ .

ـ أفادت بيزنطة من هذا المناخ ـ فوجهت قواتها واحتلت بعض مدن «الشام» وفي الوقت ذاته دعمت حركة المقاومة في افريقية بقيادة « كسيلة » وكان لجهود « قسطنطين الرابـع » ملك بيزنطة دور حاسم في اعادة بناء الدولة ودعمها وتقويتها في جميع المجالات ـ .

ـ أراد عبد الملك بن مروان دعم قوة العرب المسلمين في افريقية ، وتقليص نفوذ الروم واستعادة ما كان عقبة بن نافع قد فتحه ، وأخذ في البحث عن قائد يستطيـع الاضطلاع بهـذا العبء وتساءل في مجلسه : ـ [**فقال : – من للأمر مثل عقبة ؟ ..**]

واتفق الاجماع على زهير بن قيس البلوي فأرسل اليه عبد الملك أمراً باستئناف اعمال القتال ومتابعة اعمال الفتوح ـ .

ـ كان زهير بن قيس ـ قد بقي على رأس الحامية المدافعة عن برقة منذ مأساة تهوذة ، وخلال هذه الفترة امكن له جمع معلومات عن خصمه وتابع دراســة الموقف انتظاراً للفرصة المناسبة التي يستطيع فيها الانتقام لمقتل عقبة بن نافــع والأخذ بالثأر من قاتله « كسيلة » . وعندما وصله أمر عبد الملك – أسرع بالاجابة وكتب رسالة الى الخليفة ضمنهــا تقديره للموقف مقارناً بين قوة عدوه وكثرة عدده مقابل ضعف اعداد المقاتلين من العرب المسلمين –

– عند ذلك – أرسل عبد الملك بن مروان يستنفر أشراف العرب ليحشدوا اليه الناس من الشام وأفرغ عليهم أموال مصر –فسارع الناس الى الجهاد، واجتمع

منهم خلق عظيم ، فأمرهم أن يلحقوا بزهير فلما وصلوا اليها خرج بهم الى افريقية بعد أن أعاد تنظيمهم – .

– انطلق زهير بن قيس بجيشه بعد أن أكمل استعداداته الادارية ، ووضع مخططاته ، وتقدم حتى وصل « قلشانة » الواقعة على مسافة قريبة من القيروان، وذلك استعداداً للمعركة الحاسمة – .

ب – خطة كسيلة

– عندما بلغ « كسيلة » زحف العرب المسلمين بقيادة زهير بن قيس ، أخذ في الاستعداد للقتال – وجمع اليه قادته من الروم والبربر وشاورهم في الأمر وقال لهم : –

[.. ارى ان ننزل بـ « ممس » لئلا يركبنا من بالقيروان فنهلك لأن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ، ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ونخاف ان قتلنا زهيراً ان يثب هؤلاء وراءنا ، فاذا نزلنا « ممس » أمناهم وقاتلنا زهيراً ، فان ظفرنا بهم تبعناهم الى «طرابلس » وقطعنا أثرهم من افريقية،وان ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا ، كما ان الماء بـ « ممس » كثير ..] .

– وواضح من ذلك أن مخطط كسيلة اعتمد المعطيات التالية : –

١ً – إطالة خطوط مواصلات زهير بن قيس وعزله عن قاعدة عملياته .

٢ً – جر العرب المسلمين الى المعركة في منطقة معادية بكاملها لهم – حتى ينقطع عنهم كل دعم .

٣ً – استنزاف قوة العرب المسلمين في منطقة بعيدة ثم القيام بهجوم عام ضدهم وانتزاع افريقية كلها من قبضتهم اذا أمكن ذلك .

٤ً – الانسحاب من المعركة الى الجبل – اذا ما انتصر العرب – والاستمرار في حرب الاستنزاف واشعال الثورة المضادة .

٥ً – الافادة من منطقة العمليات وما يتوفر فيها من موارد حياتية .

ـ وتنفيذاً لهذه الخطة ـ توجه « كسيلة » بجيشة الكبير الى « مَمّس » وأخذ في حشد قبيلته من « البرانس » ومن والاهم من جموع البربر والروم .

ج – المعركة الحاسمة

ـ توفرت المعلومات عند زهير عن تحرك « كسيلة » الى « ممس » فتوقف في ظاهر القيروان مدة ثلاثة أيام أفاد منها زهير لتنظيم قواته وأفادت منها القوات للراحة والاستعداد للمعركة ثم انطلق زهير بعدها فأشرف على معسكر كسيلة في نهاية النهار ـ .

ـ في صبيحة اليوم التالي ـ تقدمت قوات العرب المسلمين وتقدم خصومهم وحدث اللقاء ـ وكان لقاء حاراً [.. **حيث التحم الفريقان ، ونزل الضر ، وكثر القتل في الجانبين حتى يئس الناس من الحياة .. ولم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل ..**] .

ـ لقد كان جيش العرب المسلمين دون جيش خصمه في قوته العددية وكان كسيلة قد حشد قوته لخوض معركة حاسمة ـ وكان العرب مقابل ذلك مصممون على انتزاع النصر فكانت معركتهم قاسية ، صعبة أظهروا فيها من الصبر والشجاعة بقدر ما أظهر خصومهم من العناد والبسالة ـ حتى استطاعوا الحاق الهزيمة بخصومهم والانتقام من قاتل عقبة بن نافع .

د – المطاردة ـ واستثمار النصر ـ .

ـ أسرع زهير لاستثمار النصر ، فدفع قواته الخفيفة للمطاردة ـ ومضى الناس في طلب البربر والروم فلحقوا كثيراً منهم وقتلوهم ـ وجدوا في طلبهم حتى واد « ملوية » بطنجة في المغرب ـ . وخلال عملية استثمار النصر ـ فتح العرب المسلمون مجموعة من التحصينات والقلاع ـ كما فتحوا مدينة « تونس » وشقنبارية [1] .

....

(١) مدينة رومانية قديمة اسمها Sicca Vaneria وتسمى الآن مدينة الكف «أو الكاف».

ـ استطاع العرب المسلمون في هذه المعارك المتتالية ان يقتلوا عدداً كبيراً من رجال الروم والبربر وان يبيدوا ملوكهم وأشرافهم وفرسانهم ، وانتشرت موجة من الذعر ـ فلجأ الروم الى قلاعهم وهرب البربر الى الجبال يعتصمون بها وتمزقت عرى التعاون بين الروم والبربر وكانت الخسائر بين قبائل « البرانس ـ و ـ اوربة » اكثر من غيرها ـ ونظراً لتحطم الزعامة في القبائل المذكورة وهي من اكبر القبائل اصبح باستطاعة العرب المسلمون العمل بأمن والانتشار حتى المغرب الاقصى حيث استولوا على مدينة « وَليلي » ما بين فاس ومكناس.

هـ ـ العدوان البيزنطي ـ .

كانت بيزنطة تتابع مسيرة الأعمال القتالية في أفريقية ، وأرادت اجهاض تلك الانتصارات التي أحرزها العرب المسلمون والقضاء على جيشهم مما يسمح لهم بمعاودة فرض سيطرتهم على هذا المجال الحيوي .. [.. **فخرجوا الى برقة في مراكب كثيرة وقوة عظيمة من القسطنطينية وجزيرة صقلية فأغاروا على برقة واصابوا بها سبياً كثيراً وقتلوا ونهبوا ووافق ذلك قدوم عسكر زهير ، فأمر عسكره بالمسير الى الساحل طمعاً بأن يدرك سبي المسلمين فيستنقذهم ، وأشرف على الروم فاذا هم في خلق عظيم ..** [(1)]

لقي زهير الروم في اربعين رجلا واراد ان يكف حتى يلحقه الناس فقال له فتى حدث كان معه.. جبنت ابا شداد ، فقال قتلتنا وقتلت نفسك ثم خرج بهم فصادف العدو ، فقرأ السجدة فسجد وسجد اصحابه ثم نهضوا فقاتلوا فقتلوا اجمعون لم يشذ منهم رجل ، ثم اتى فهد بن كثير المعامزي فأزال الروم عن برقة فضبطها [(2)] **. وعاد الروم بما غنموا الى القسطنطينية ..**

دفن زهير وصحبه بـ « درنة » قريباً من الشاطيء حيث استشهد . وكان

....

(١) الكامل لابن الاثير ٤ ـ ٤٤ .

(٢) تهذيب ابن عساكر ٥ ـ ٣٩٣ .

خبر المأساة التي نزلت به وبالمسلمين مؤلماً . ولما سمع عبد الملك بن مروان بقتل زهير عظم عليه واشتد وكانت مصيبته مثل مصيبة عقبـــة بن نافع قبله نظراً للمكانة الرفيعة التي احتلها زهير في نفوس المسلمين – .

٥ – القضاء على ثورة الكاهنة وتدمير قوة بيزنطة في قرطاجنة

أ – الوضع العام – .

جاءت احداث النكسة الجديدة التي أصابت العرب المسلمين واستشهاد زهير ابن قيس البلوي تزيد من عمق المأساة التي أصيبت بهـا الجيوش العربية قبل ذلك في استشهاد عقبة بن نافع الفهري ولتوضح الصورة العامة للموقف في «افريقية».

لقد أصبح واضحاً للعرب المسلمين جميعاً أنه مـا لم يتم القضاء نهائياً على النفوذ البيزنطي في افريقية فإن الأمر لن يستقر للعرب وأن بيزنطة لن تتخلى عن مجالها الحيوي في افريقية والبحر بسهولة ولهذا فان الطريقة الوحيدة لتحقيق الاستقرار هي في تصعيد العمليات براً وبحراً وتدمير جميع الروابط بين بيزنطة – وافريقية – .

– وكانت بيزنطة قد أدركت – بعد أن تحررت الشام من قبضتها – أن وجودها وبقاءها مرتبط إلى حد بعيد في قوتها البحرية وفي مجالهـــا الحيوي وقدرتها على الاحتفاظ ببعض القواعد البحرية فوق أرض افريقية وعلى سواحلها – . فأعادت بناء قوتها الذاتية ونظمت قواتها المسلحة ضمن حدود مفهوم هذه المنطلقات.

– لقد توافق توقيت أحداث النكسات في افريقية مع تمزق في الجبهة الداخلية خلال الفترة الاولى من حكم عبـــد الملك بن مروان ٦٥ – ٨٦ هـ – فكانت الثورات المتلاحقة سبباً في عدم تمكن الحكم الأموي من تركيز الجهد لتحقيق الاستقرار في افريقية وكان من أهم هذه الثورات والأحداث : –

سنة ٧٣ – كانت ثورة عبـد الله بن الزبير في الحجاز من الثورات القوية التي ناهضت الحكم الأموي ، وتطلب القضاء عليها جهداً كبيراً واستمرت حتـى أمكن القضاء عليها سنة ٧٣ هـ .

سنة ٧٦ هـ – ثورة شبيب بن قيس الخارجي الشيباني بالعراق . وقد اشتد ساعد شبيب بالكوفة . ونجح في القضاء على القوات التي وجهها الحجاج ضده وقتل قادة هذه الجيوش على التتابع ومنهم – زائدة بن قد امه الثقفي وعتاب بن ورقاء الخزاعي والحارث بن معاوية الثقفي وأبا الورد النضري ثم طهمان مولى عثمان بن عفان وأخيراً اضطر الى قيادة جيش بنفسه حتى نجح في اخماد الثورة وقتل شبيب.

سنة ٧٧ هـ – ثورة مطرف بن المغيرة بن شعبة في العراق – واعلانه خلع عبد الملك بن مروان مما اضطر الحجاج الى توجيه قوة كبيرة لقمع الثورة والقضاء على مطرف ومطاردته حتى الجبال وقتله – .

سنة ٧٩ – انتشر وباء الطاعون في الشام فلم يغز في تلك السنة أحد – .

سنة ٨٠ هـ – ثورة عبد الرحمن بن الأشعث في سجستان – وكانت هذه الثورة من أقوى الثورات حتى كادت تهدد وجود الدولة الأموية – وقد خاض الحجاج مجموعة من المعارك ضد ثورة عبد الرحمن بن الأشعث وكانت من المعارك الضارية التي استنزفت طاقات الدولة وامكاناتها – واستمرت هذه الثورة حتى عام ٨٤ – . حيث أمكن قتل ابن الأشعث في سجستان – .

ب الوضع الخاص

بلغ عبد الملك بن مروان مقتل زهير بن قيس البلوي واصحابه فاشتد عليه وعلى المسلمين ذلك . وسأل أشراف المسلمين عبد الملك أن ينظر إلى اهل أفريقية ويؤمنهم من عدوهم ويبعث الجيوش إليهم فقال عبد الملك : –

[.. ما اعلم احداً أكفأ بافريقية من حسان بن النعمان الغساني ..]

وجهز عبد الملك جيشاً ووجهه إلى مصر كما كتب إلى حسان بن النعمان أمر تعيينه لولاية افريقية – وكان مما كتبه له : –

(.. اني اطلقت يدك في اموال مصر ، فاعط من معك ومن ورد عليك واعط الناس ، واخرج الى بلاد افريقية على بركة الله وعونه ..)

أمضى حسان عام ٧٤ هـ في الاستعداد للمعركة وتنظيم القوات وبلغ عدد جيشه ٤٠٫٠٠٠ مقاتل .

ـ كان حسان أول قائد من الشام دخل افريقية وكان جيشه أكبر جيش جهز للفتح فلم يدخل أفريقية قط جيش مثله ـ .

ـ عندما أنهى حسان استعداده ، غادر مصر وتوجه إلى طرابلس . حيث توقف فيها لاعادة تنظيم القوات وجمع المعلومات ووضع مخطط العمليات ـ وخلال توقفه « في طرابلس » انضم إليه المسلمون من الأفارقة فمين لقيادتهم هلال بن ثروان اللواتي ـ وهو أول قائد افريقي يتولى مركزاً قيادياً ـ كما انضمت اليه القوات المتفرقة ، فدفع مقدمة له بقيادة محمد أبي بكير وهلال بن ثروان اللواتي ـ ففتح البلادوأصاب غنائم كثيرة دون أن يلقى مقاومة كبيره ـ. وتابع حسان بعد ذلك مسيرته بجيشه الكبير حتى وصل القيروان .

جـ ـ الواجب الأول(١) .

كانت «قرطاجنة» دار ملك افريقية . وكان صاحبها من أعظم الملوك قدراً ـ وبها يومئذ من جموع الروم أمم لا تحصى ولم يكن المسلمون قط حاربوها وفتحوها عنوة بل كانوا يحاصرونها ويفرضون على أهلها أموالاً أو يقتطعون منها بلاداً مجاورة كما فعل أبو المهاجر دينار عندما اقتطع منها جزيرة شريك ثم يتركونها لأهداف أخرى .

ـ وضع حسان « هدفه الأول » في تدمير الروابط بين بيزنطة وأهل أفريقية وذلك بتدمير قواعد ارتكازهم في الساحل الأفريقي ، وقرر البدء بالهجوم على « قرطاجنة » فتوجه بجيشه ونظم حصاراً دقيقاً حول المدينة وخاض مع الحامية المدافعة عن قرطاجنة معارك ضارية كبد فيها الحامية خسائر فادحة ، وعندما أدرك القادة المدافعين عن المدينة تصميم حسان على فتح المدينة قرروا الانسحاب ـ

....

(١) التاريخ الكامل لابن الاثير ٤ ـ ١٤٣ . البيان المغرب ١ ـ ٢٣ ـ ٢٤ .

وركبوا في مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس ، وفتح حسان المدينة عنوة فسباها وغنم ما فيها وأمر بهدم قرطاجنة وقطع القناة عنها وعاد إلى القيروان ـ .

ـ علم أهل بوادي « قرطاجنة » وأقاليمها بأمر هروب ملكها عنها ـ فأسرعوا بالدخول إليها والاعتصام بها ، وتوجه حسان بجيشه لحصارها ثانية ، واستطاع الجيش العربي الاسلامي اقتحام الأسوار من جديد ، وعمل على إبادة المقاومة ، وأرسل حسان لمن حواليها فاجتمعوا إليه مسارعين خوفاً من عظيم سطوته وشدة بأسه فلما أتوه ولم يبق منهم أحد أمرهم بتخريب قرطاجنة [1] وهدمها ، فهدم المسلمون ما أمكن منها ـ .

ـ عندما يئس الروم من استخدام « قرطاجنة » قاعدة لهم ، تجمعوا في «صطفورة» [2] و«بنزرت» [3] ـ والتحق بهم من والاهم من البربر ، وأخذوا في تنظيم قوتهم استعداداً لجولات أخرى ، وعلم حسان أمر هذا التجمع وعرف أن الروم لا زالوا على شيء من القوة والكثرة ، فقرر تصفية مقاومتهم قبل تزايد خطرهم وسار إليهم وقاتلهم في معارك عنيدة وضارية أظهر فيها الروم من الصمود بقدر ما أظهر العرب من الشجاعة ، واستطاع العرب المسلمون انتزاع النصر وانهزم الروم وكثر القتل فيهم واستولى المسلمون على بلادهم ، ولم يترك حسان موضعاً من بلادهم الا وطئه وخافه أهل أفريقية خوفاً شديداً ، ولجأ المنهزمون من الروم

....

(١) قرطاجنة : تقع على بعد اثني عشر ميلا من مدينة تونس ، ويسميها اهل تونس اليوم « المعلقة » وكان بينها قرى متصلة عامرة ، وفي هذه المدينة آثار عظيمة وأبنية ضخمة وأعمدة قائمة . معجم البلدان ٧ — ٥٢ .

(٢) صطفورة : بلدة من نواحي افريقية . معجم البلدان ٥ — ٣٥٦ .

(٣) بنزرت : مدينة في تونس بينها وبين مدينة تونس يومان وهي مشرفة على البحر . معجم البلدان ٢ - ٢٩٢ .

إلى مدينة « باجة » [1] فتحصنوا بها وتحصن البربر بمدينة « بونة » [2] فعـــاد حسان إلى القيروان لأن الجراح قد كثرت في أصحابه، فأقاموا بها حتى صحوا.

د ـ الواجب الثاني « معركة نيني »

فشل محاولة القضاء على ثورة الكاهنة .

بعـــد مجموعة الانتصارات التي حققها حسان بن النعمان على قواعد الروم ، أصبح باستطاعته توجيه قواته للقضاء على حركات التمرد التي تزعمتها الكاهنة ـ.

بعد مقتل كسيلة ، انتقلت زعامـــة البربر إلى « جراوة » من قبائل البربر الكبيرة وكانت هذه القبيلة تدين بالطاعة والولاء لملكة تخبر قومهـا بأشياء من الغيب حتى « لقبت بالكاهنة » ـ. وكان للكاهنة من قوة الشخصية ماساعدها على فرض ملكها وامتداد سلطانها على البربر دون منازع ـ. وكان للكاهنـــة بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم عن سلفهم وربوا في حجرها فاستبدت عليهم ، واعتزت على قومها بهم وبـما كان لها من الكهانة فانتهت اليها رئاستهم ووقفوا على اشارتها [3] .

قرر حسان بن النعمان القضاء على ثورة الكاهنة ، فنظـم قواته ، وانطلق بجيشه حتى وصل « مجانـة » [4] فنزل بها وكانت قلعة لم تفتح فتحصن بها الروم فمضى حسان وتركهم وبلغ الكاهنة أمره فزحفت من جبـل « أوراس » في عدد لا يحصى حتى نزلت مدينة « باغاية » [5] واخرجت من بها وهدمتها ظنـاً منها أن حسان يريد حصنها ليتحصن به منها ـ. وعندما علم حسان بما فعلته

---

(١) باجة : بلدة بافريقية تعرف بـ « باجة القمح » لوفرة محصولها من القمح . معجم البلدان ٢ ـ ٢٥ .

(٢) بونة : مدينة حصينة بافريقية تقع على البحر . معجم البلدان ٢ ـ ٣٠٩ .

(٣) الاستقصاء ١ ـ ٨٢ . فتح مصر والمغرب ٢٧٠ .

(٤) مجانة : بلدة بينها وبين القيروان خمس مراحل . معجم البلدان ٧ ـ ٣٨٦ .

(٥) باغاية : بلدة بين مجانة وقسنطينة . معجم البلدان ٢ ـ ٤١ .

الكاهنة سار بجيشه الى وادي « مكناسة »[1] وبحث عن موقع يتوفر فيه الماء والمواد الحياتية وقال لأصحابه: (.. **دلوني على ماء يسع العسكر اللذي أنا فيه..)** فمالوا إلى نهر « نيِنْيِ »[2] فنزل عليه وزحفت إليه الكاهنة حتى أتت أسفل النهر فنزلت عليه ـ . فكان حسان يشرب هو وأصحابه من أعلاه وتشرب هي وأصحابها من أسفل النهر ودنا الطرفان من بعضها فأبى حسان أن يقاتلها آخر النهار وأبى أن يقاتلها بالليل وبات الفريقان على مصافهم ـ . فلما أصبحوا زحف بعضهم على بعض فاقتتلوا قتالاً شديداً وعظم البلاء وظن المسلمون أنه الفنــاء فانهزم حسان بعد بلاء عظيم وقتل من العرب خلق كثير فسمي ذلك اليوم[**يوم البلاء**] وسمي النهر الذي التقوا عليه [**نهر البلاء ..**] فاتبعته الكاهنة بمن معها حتى خرج من حد « قابس »[3] فأسلم إفريقية ومضى على وجهه وأسرت من أصحابه ثمانين رجلاً منهم خالد بن يزيد العبسي ـ . وكان رجلاً مذكوراً فأحسنت إسارهم ـ .

ـ عندما فصل حسان من « قابس » كتب إلى أمير المؤمنين يخبره بما نزل بالمسلمين من الكاهنة ـ فكتب إليه أمير المؤمنين : ـ

(.. قد بلغني امرك وما لقيت وما لقي المسلمون ، فانظر حيث لقيت كتابي هذا .. فأقم ولا تبرح حتي امري ..)

فلقيه الكتاب وهو نازل بمكان يقال له اليوم قصور حسان، فبنى هناك قصراً لنفسه ونزل قصوراً من حيز برقة فسميت «قصور حسان» وكانت (أنطابلس)[4]

(١) مكناسة : بينها وبين مراكش اربع عشر مرحلة نحو المشرق وهناك مدينة مشهورة اخرى يقال لها مكناسة الزيتون ـ حصينة ـ في طريق المار من فاس الى سلا على شاطيء البحر . معجم البلدان ٨ – ١٣٣ .

(٢) نيني : نهر كبير في افريقية . معجم البلدان ٨ - ٣٦٩ .

(٣) قابس : بين طرابلس وصفاقس على ساحل البحر . معجم البلدان ٧ - ٢ .

(٤) انطابلس : معناها بالرومية الخمس مدن . معجم البلدان ١ – ٣٥٣ .

(ولوبية)[1] (ومراقبة) الى حد (أجدابية) من عمل حسان فأقام بعمل برقة خمس سنوات[2] .

٦ – القضاء على ثورة الكاهنة واستعادة قرطاجنة ٨١ – ٨٢ هـ

أ – الوضع العام

حدثت معركة « نيني » ومأساة يوم البلاء على يد الكاهنة عام ٧٦ هـ – وتوقف جيش العرب المسلمين قريباً من « سرت » حيث بنيت قصور حسان وذلك بانتظار الدعم ثم استأنف حسان بن النعمان الغساني عملياته عام ٨١ هـ . وبين التاريخين خمسة أعوام حدثت خلالها تطورات كبيرة في موقف كل طرف من الاطراف المتصارعة فوق رمال افريقية وسهولها وجبالها وشواطئها – .

ب – الكاهنة

الكاهنة من قبيلة جراوة من زناتة وهي القبيلة التي احتلت زعامة البربر في جبال الأوراس – واسم الكاهنة « داهيا بنت ماتيا بن تيفان » احترفت السحر والكهانة واستخدمت ذكاءها بمهارة حتى فرضت طاعتها وكان زوجها ملكاً على الأوراس – في الجزائر – ثم توفي الزوج وترك للكاهنة ثلاثة أبناء صغار أوصى لهم بالملك وقامت الكاهنة مقامهم . ونجحت في فرض زعامتها على البربر جميعاً وعززت مكانتها بانتصارها على حسان في معركة « نيني » حتى لم يبق لها في أفريقية كلها معاند أو معارض .

عندما انتصرت الكاهنة على حسان تابعت مطاردته حتى أخرجته من أفريقية ولم تحاول الاستمرار بعد ذلك في المطاردة على نحو ما فعل « كسيلة » من قبل . ولم تحاول الكاهنة أيضاً الإساءة إلى العرب المسلمين في القيروان بعد

---

(١) لوبية : ليبيا

(٢) الاستقصاء ١ – ٨٢ . فتوح مصر والمغرب ٢٧٠ . الكامل ابن الاثير ٤ – ١٤٣ .

أن استخلف عليهم أبا صالح ، وعادت الكاهنة بعد المطاردة إلى قاعدتها في « الأوراس » .

- ثم حسنت الكاهنة معاملة الأسرى العرب - وبصورة خاصة إلى خالد ابن يزيد حيث تبنته [1] وجعلته كواحد من أولادها الثلاثة - .

- أما معاملة الكاهنة لقومها البربر فكانت على النقيض من ذلك ، حيث أخذت بأساليب الظلم والإساءة والاضطهادضد أبناء جلدتها وقد حاولت الكاهنة تنظيم جبهة مضادة للعرب المسلمين لكن كثيراً من قومها عارضوها في ذلك وقد أخذت أعداد ضخمة منهم تعتنق الاسلام ديناً لها وكانت هذه المعارضة سبباً في حمل الكاهنة على اتباع مزيد من العنف والشدة فانتشر الاضطراب وسادت الفوضى في البلاد - حتى فكر كثير من البربر في طلب النجدة من العرب واستدعائهم - . [2]

- توفرت المعلومات عند الكاهنة عن عزم العرب المسلمين على معاودة الفتح، فجمعت أنصارها وأتباعها - وقررت تطبيق سياسة [الأرض المحروقة] فقالت لهم : -

ان العرب انما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة ونحن انما نريد منها المزارع والمراعي، فلا نرى لكم الا خراب بلاد أفريقية كلها حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع اليها إلى آخر الدهر ، ووجهت قومها الى

---

(١) جاء في البيان المغرب ١ - ٢٧ : كان عدد أسرى العرب المسلمين ثمانين رجلا منهم خالد بن يزيد العبسي وكان رجلا مذكوراً فأحسنت اسارهم ، الا خالد بن يزيد وكان أذكر من كان مع حسان فحبسته عندها ثم عمدت الى دقيق شعير مقلو فأمرت به فلت بزيت والبربر تسمي ذلك « البسيسة » وقالت لخالد « ما رأيت في الرجال اجمل منك ولا اشجع وأنا اريد ان أرضعك فتكون أخاً لولدي » فعمدت الى دقيق الشعير الملتوت بزيت وجعلته على ثدييها ودعت ولديها وقالت (كلا معه على ثديي ، ففعلا) فقالت قد صرتم اخوه ، وكانت الكاهنة من جماعة البربر لها رضاع اذا فعلوه يتوارثون بينهم .

(٢) الكامل لابن الاثير ٤ / ١٤٣ . فتح مصر والمغرب ٢٧٠ .

كل ناحية يقطعون الشجر ويهدمون الحصون فذكروا أن أفريقية كانت ظلاً واحداً من طرابلس حتى طنجة وقرى متصلة ومدائن منتظمة حتى لم يكن في أقاليم الدنيا اكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا اكثر مدائن وحصوناً من اقليم أفريقية والمغرب ، فخربت الكاهنة ذلك كله ، وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزائر البحرية .

ـ تركت سياسة الكاهنة عقابيل سيئة انعكست على قوة « الكاهنة » .

ـ فقد أخذ البربر المسلمون يتحينون الفرصة للانعتاق من سلطة الكاهنة ـ.

ـ وأخذت اعداد كبرى من البربر والروم في النزوح إلى الأندلس وصقليا .

ـ وكان من نتيجة « سياسة الأرض المحروقة » حرمان البربر من مواردهم الحياتية فتمزق البربر وأخذوا يبتعدون عن الكاهنة .

ـ لقد أضر هذا العمل التخريبي بقضية الكاهنة ضرراً عظيماً حيث أخذت أصوات التأييد للكاهنة تنقلب ضدها وأخذت المعارضه تنتظم في صف واحد مناوئة لها ، ولم يعد باستطاعة الكاهنة ممارسة الدور القيادي الذي كانت تمارسه قبلاً والذي مكنها من توحيد البربر في مجابهة العرب المسلمين والانتصار عليهم ـ.

ج ـ بيزنطة[١]

توافق حكم عبد الملك بن مروان ٦٥ ـ ٨٦ هـ (٦٨٥ ـ ٧٠٥) م حكم ثلاثة من ملوك بيزنطة الأقوياء وهم جستينيان الثاني ٦٦ ـ ٧٦هـ (٦٨٥ ـ ٦٩٥)م وليونيتوس ٧٦ ـ ٧٩ هـ (٦٩٥ ـ ٦٩٨) م وتيبير الثالث ٧٩ ـ ٨٦ هـ (٦٩٨ ـ ٧٠٥) م ـ وقد اتبع هؤلاء الأباطرة الثلاثة سياسة واحدة بالنسبة لأفريقية وهي العمل على إحباط كل محاولات عربية لانتزاع افريقية وتحريرها من سيطرة الروم ـ .

---

(١) تاريخ المغرب الكبير ١ / ٨٧ وفتح العرب للمغرب ٢٥٢ ـ ٢٥٤ .

- كان احتلال «قرطاجنة» وتدميرها من قبل حسان بن النعمان بمثابة ضربة قوية لنفوذ بيزنطة ومخططاتها وعندما علمت بيزنطة بهزيمة حسان في معركة «نيني» أخذت في تجهيز قوة كبيرة لاستعادة قرطاجنة وأسندت قيادة هذه القوة إلى قائد عرفت فيه بيزنطة القوة والكفاءة وهو البطريق يوحنا PATRICIUS JEAN وأعد امبراطورية في تلك الفترة« ليوتيوس » حملة بحرية وأسطولاً كبيراً لنقل المقاتلين إلى أفريقية - .

- وفي عام ٧٨ هـ - ٦٩٧ م - وصلت هذه القوة البحرية إلى « قرطاجنة » وهاجمت المدينة التي لم تكن هناك حامية قوية للدفاع عنها - فلم تصطدم قوة الروم بمقاومة كبيرة. وأخذ جند الروم في طرد العرب المسلمين الذين كان يقودهم أبا صالح - .

تميز أسلوب معاملة الروم للعرب المسلمين بالقسوة والوحشية مما أثار حقد العرب المسلمين وعندما بلغ حسان بن النعمان ما فعله الروم وجه وفداً إلى الخليفة عبدالملك بن مروان يضم أربعين رجلاً من أشراف العرب بهدف اطلاع الخليفة على حقيقة الموقف المتدهور في أفريقية وضرورة توفير الإمكانات الضرورية لمعاودة الفتوح - .

- توقف البطريق يوحنا عند حدود استعادة قرطاجنة والمدن المجاورة لها - وأعاد بناء الحصون - والمواقع الدفاعية - .

- أصبح الموقف في أفريقية على النحو التالي : -

- الكاهنة وتسيطر على الداخل والمناطق الجبلية بداية من الأوراس - .

- الروم - ويسيطرون على الساحل بداية من قرطاجنة مع شريط ضيق في اتجاه الغرب .

د - العرب المسلمون - [1] .

- توقف حسان في المنطقة التي أمره الخليفة عبد الملك بن مروان بالتوقف

---

(١) الكامل لابن الأثير ٤ / ١٤٣ - ١٤٤ . فتوح مصر والمغرب ٢٧٠ .

عندها من اقليم « برقة » ، وأخذت فرسان العرب ورجالها تصل تباعاً من قبل أمير المؤمنين ، لكن هذا الدعم بقي محدوداً ولم يكن باستطاعة الخليفة عبد الملك بن مروان إرسال دعم قوي بسبب الفتن والثورات الداخلية . والأوبئة . وأخيراً وفي عام ٨١ هـ – وبعد أربع سنوات من التوقف أرسل الخليفة دعماً قوياً وأصدر أوامره إلى حسان بن النعمان لمتابعة العمليات – .

– كان حسان في حاجة للمعلومات الدقيقة عن أوضاع الكاهنة وقوتها حتى يستطيع تقدير الموقف بصورة صحيحة ، فكلف رجلاً يثق به بمهمة الوصول إلى معسكر الكاهنة والاتصال بخالد بن يزيد الأسير لديها ويبلغه الرسالة التالية : –

[... ان حسان يقول لك ما يمنعك من الكتابة الينا] وبعث حسان مع هذا الرجل بكتاب يستعلم من خالد الأمور فكتب خالد في ظهر كتاب حسان : – [... البربر متفرقون ، لا نظام لهم ولا رأي عندهم فاطو المراحل وجدَّ في السير] .

وضع خالد كتابه في خبزة وجعلها زاداً للرجل ووجهه بها إلى حسان وكان خالد قد أنضج الخبزة فاحترق الكتاب بالنار فلما كسر حسان الخبزة وقرأ الكتاب الذي كتبه إليه خالد وجده وقد أفسدته النار فقال له حسان : إرجع إليه – .

– عاد الرجل مرة أخرى إلى خالد بن يزيد ، وأعلمه باحتراق رسالته فكتب خالد إلى حسان رسالة ثانية بما كان قد كتبه إليه وأودع الرسالة قربوس السرج بعد أن حفره ووضع الكتاب وأطبق عليه حتى استوى وخفيَ مكانه – . وبذلك استطاع أن يوصل إلى حسان ما يحتاج إليه من معلومات – .

– أخذ حسان في الاستعداد للهجوم ، فنظم قواته استناداً للمعلومات التي أمكن جمعها وسير إليه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الجنود والاموال . وعندما أنهى حسان تجهيز جيشه وتنظيمه توجه نحو جبال أوراس حيث ملك الكاهنة ومستقرها – .

٥ - مسيرة الأعمال القتالية [١]

- علمت الكاهنة بتقدم جيوش العرب المسلمين فغادرت مقرها في الأوراس ومعها خلق عظيم وذلك في أواخر سنة احدى وثمانين الهجرية - .

- توقفت الكاهنة في الليل وجمعت أبناءها ومعهم خالد بن يزيد وقالت لهم أنها رأت رأسها مقطوعاً موضوعاً بين يدي ملك العرب الأعظم الذي بعث حسان . وأعلمتهم [... أنها مقتولة من غدها ...] فقال لها خالد بن يزيد : [فارحلي بنا وخلي له عن البلاد ...] فامتنعت ورأته عاراً لقومها .

- اقتربت جيوش العرب المسلمين من الكاهنة - فخرجت ناشرة شعرها وقالت : -

[يا بني ! انظروا ماذا ترون في السماء ؟ - فقالوا : - [بزى شيئاً من سحاب احمر ، فقالت : - لا ، والهي » ولكنها رهج خيل العرب] ثم قالت لخالد بن يزيد : - إني إنما كنت تبنيتك لمثل هذا اليوم ، أنا مقتولة . فأوصيك بأخويك هذين خيراً فانطلق فخذ لهما أماناً .

- ركب خالد وأبناء الكاهنة ، وتوجهوا إلى حسان. فأخبره خالد بخبرها. وأنها شعرت بقرب نهايتها فوجهت إليك أولادها . فوكل بهما من يحفظهما وقدّم خالداً على أعنة الخيل .

- كان مع حسان جماعة من البربر استأمنوا إليه ، فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه إثني عشر ألفاً من قبائلهم يجاهدون مع العرب. فأجابوه وأسلموا على يديه ، فعقد لولدي الكاهنة لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس وأخرجهم مع العرب يجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر - .

- تقدم جيش العرب المسلمين بقيادة حسان حتى وصل قابس حيث لقيه

---

(١) فتح العرب للمغرب ٢٥٦ - ٢٥٨ . فتوح مصر والمغرب ٢٧١ . الكامل . ابن الاثير ٤ - ١٤٣ .

أهلها بالأموال والطاعة ، وجعلها عاملاً له ومضى إلى هدفه ـ .

ـ والتقى حسان خلال مرحلة التقرب بجمع من الروم فأخذوا يستغيثون به من الكاهنة ويشكون إليه منها وكانت هذه المواقف كلها تؤكد صحة المعلومات عن تمزق قوة الكاهنة .

ـ تابع العرب المسلمون تقدمهم حتى قفصة ، حيث أعلن أهلها الطاعة ، وتابع العرب تقدمهم إلى قسطيلية ونفزاوة [1] ، فكان أهل المدينتين ايضاً في استقبال العرب المسلمين. وتخلى الروم والبرانس وقسم من البتر عن الكاهنة حتى لم يبق في طاعتها سوى نفر قليل من البتر ـ .

ـ التقى جيش حسان مع جيش الكاهنه في سفح جبل الأوراس ودارت معركة قصيرة وحاسمة لقي فيها جيش الكاهنة هزيمة منكرة وطارد حسان الكاهنة حتى قتلها في موضع حمل اسمهامنذ ذلك التاريخ وعرف ببئر الكاهنة.

ـ كان مقتل الكاهنة ـ إيذاناً بانتهاء مقاومة البربر حيث لم تلق جيوش العرب المسلمين بعد ذلك مقاومة تذكر . وكانت ثورة الكاهنة بمثابة المعقل الأخير للمقاومة الطويلة التي جابهت العرب المسلمين في فتوح أفريقية ـ .

و ـ تصفية قاعدة العدوان « قرطاجنة »

ـ بعد انتهاء جيش العرب المسلمين بقيادة حسان من القضاء على حركة الكاهنة عاد إلى القيروان في شهر رمضان من عام ٨٢ هـ ـ بهدف إعطاء الجيش فترة للراحة وإعادة التنظيم ومتابعة الأعمال القتالية لتصفية قاعدة العدوان البيزنطية المتمثلة بقرطاجنة ـ .

ـ كان البطريق يوحنا قد نظم قواته بعد الاستيلاء على قرطاجنة ، فاتخذ من

....

(١) نفزاوة : مدينة بالمغرب بينها وبين القيروان ستة ايام ، تسير من القيروان نحو الغرب معجم البلدان ٨ ـ ٣٠٣ .

جبال «زغوان»[1] شمال القيروان خطاً أمامياً للدفاع يمتد حتى جنوب قرطاجنة، وكانت سيطرة البطريق قد امتدت مع الشريط الساحلي ما بين سوسة وشقبنارية.

ـ بعد انتهاء مرحلة التنظيم، شكل حسان مجموعة قتالية بقيادة أبي صالح ودفعه كمقدمة لعملياته في اتجاه القيروان ـ. ووصلت هذه المجموعة حتى حدود جبل زغوان حيث اصطدمت بمقاومة الروم واستمرت المعركة بين الطرفين ثلاثة أيام متتالية دونما تحقيق نتيجة حاسمة فاضطر حسان لقيادة القوة الرئيسية والتوجه إلى القيروان ففتحها صلحاً ـ.

تابع جيش العرب المسلمين تقدمه نحو «قرطاجنة» ـ فانسحب الروم حتى حدود المدينة وتحصنوا بأسوارها ودارت بينهم وبين العرب المسلمين معركة طاحنة لقي فيها البطريق يوحنا هزيمة منكرة فتراجع إلى قرطاجنة واحتمى بحصونها ـ.

ـ في الوقت الذي كانت تدور فيه المعارك البرية كان أسطول العرب المسلمين يجابه أسطول بيزنطة ويلحق به هزيمة منكرة ويرغم القطع البحرية البيزنطية على الإنسحاب.

شعر البطريق يوحنا أن الموقف في غير صالحة، فقرر الإنسحاب من المدينة وجمع جنده وأبلغهم قراره بالإنسحاب على أمل العودة ثانية ـ. وركب جند الروم القطع البحرية التي كانت متوقفة في ميناء «باب النساء» وحمل الجند معهم نساءهم وأولادهم وتسللوا ليلاً إلى عرض البحر متوجهين إلى بيزنطة ـ. ولم يبق في المدينة سوى حاكمها «الملك المسمى مرياف» وأهله وولده ـ.

ـ اتصل «الملك مرياف» بحسان وأرسل إليه رسالة جاء فيها: ـ

[... هل لك أن تعاهدني في أهلي وولدي، وأشترط لنفسي ما شئته من المنازل وأسلم لك المدينة؟]

(١) جبل زغوان: جبل منيف مشرف بالقرب من تونس وفيه قرى كثيرة آهلة. معجم البلدان ٤ ـ ٣٩٤.

– ولما كان العرب المسلمون يجهلون أمر إنسحاب الروم من المدينة فقد أجابه حسان إلى ذلك،ودخل بجيشه إلىقرطاجنة فلم يجد فيها غيره وغير ولده وأهله، فوفى له حسان بما أعطاه من العهد – وأقام سرياف مالكاً لهـــذه الأرض وهي الناحية المسماة اليوم بمرياف في تونس – .[1]

– بعد هذا الانتصار الحاسم أصبح باستطاعة حسان تركيز الجهد لبناءالمجتمع الجديد وتوطيـــد عرى التعاون بين العرب المسلمين وبين سكان البلاد الأصليين والعمل في الوقت ذاته على تصفية بقية المقاومات الثانوية التي لا زالت منتشرة في أنحاء متفرقة من أفريقية – وتصفية كل جذور النفوذ البيزنطي المحرض الدائم على الثورة المضادة – .

ز – القضاء على النفوذ البيزنطي في البحر [2] .

بناء « تونس »

– كانت بيزنطة تستخدم الجزر القريبة من أفريقية كقواعد متقدمة لحشد قواتها ، وأراد حسان بن النعمان تتويج إنتصاراته بالقضاء على سيطرة بيزنطـــة وتصفية قواعدها البحرية فاستمد عبد الملك بن مروان وطلب دعمه بقوات الأسطول ، وأمده عبد الملك بأسطول تحت قيادة عبد الملك بن قطن – .

– توجه أسطول العرب المسلمين وأخذفي تطهير الجزر المتصلة بساحل أفريقية وفتحها حتى لم يبق للروم نفوذ فيها أو سيطرة عليها .

– كانت هذه العمليات البحرية ، وخطر التهديد البيزنطي من الحوافز التي دفعت حسان نحو التفكير لإقامة قاعدة بحرية متقدمة يتم فيها بناء أسطول خاص لعمليات أفريقية نظراً لبعد المسافة الفاصلة بين أفريقية وقواعـــد الأسطول في الشام ومصر .فيغير بهذا الأسطول على ساحل الروم فيشغلهم بأنفسهم عن الإغارة على أفريقية – .

---

(١) فتح العرب للمغرب ٢٦٠ . تاريخ المغرب الكبير ٢ – ١٠٥ . البيان المغرب ١ – ٢٩ .

(٢) فتح العرب للمغرب ٢٦٠ – ٢٦٢ . تاريخ المغرب الكبير ٢ – ١١٥ .

ـ بدأت أعمال الإستطلاع لتحديد موقع مناسب يتم فيه بناء هذه القاعدة البحرية ، ووقع الإختيار على موقع « جنوب قرطاجنة » حيث توجد بلدة قديمة يرجع عهدها إلى أيام اليونان واسمها « ترشيش » يسكنها بعض الرهبان في كنيسة هي كل ما بقي من البلدة التي كانت زاهرة في يوم من الأيام . وكانت أصوات الرهبان في الليل وترجيع عباداتهم تخفف من وحشة المنطقة المقفرة «وتؤنسها» .

ـ كانت « ترشيش » موطناً للبربر والروم ، تقع في سفح جبل وتحتل ربوة يحيط بها خندق طبيعي هـو كالحصن لها والسور الذي يمنع الأعداء عنها ، والى الشرق من البلدة تقع بحيرة جميلة تلطف جوها وتزيدها سحراً وأنساً وجمالاً ، وكانت السهول الزراعية تحيط بالبلدة التي نزلها حسان بن النعمان مع جيشه أثناء حصار قرطاجنة فأعجب بمناعة موقعها وجمال مكانها ، وكان مما أعجب العرب المسلمين في موقع « ترشيش » اشرافها على « سبخة » فسيحة لا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير ، ذلك ان التمركز الى الداخل وعند حدود السبخة يحبب العرب في سكنى المدينة التي ستقام عنده لأنهم لم يكونوا حينذاك يطمئنون كثيراً الى سكنى المدن الساحلية الصرفة ، ثم إن موقعها هذا يجعلها بمأمن من غارات الروم المباغتة فيكفي حراسة مدخل السبخة لكي ينذر الحراس اهل المدينة الجديدة الى الخطر قبل وقوعه . وعلاوة على ذلك كله فان الأرض السبخة هي المرعـى الطبيعي للإبل سفن الصحراء ، وللخيول العرب ومواشيهم .

ـ أخذ حسان بن النعمان في تخطيط مدينته الجديدة على أنقاض مدينة « ترشيش » البائدة . وأطلق عليها العرب المسلمون « تؤنس ـ أو تونس » لجمالها ولما تدخله من الأنس والبهجة على القلوب .

ـ بدأت أعمال بناء مدينة « تؤنس » بحفر قناة عميقة تصلح للملاحة وتصل بين البحيره والبحر فتصبح تونس ميناء بحرياً تحميه البحيرة الواسعة من أمواج البحر ويتم على ضفاف البحيرة إقامة دار لصناعة السفن بحيث ترسوا القطـع البحرية وهي بمأمن تام من كل عدوان غادر ، أو هجوم مباغت .

- ظهرت خلال أعمال البناء ضرورة الاستعانة بالخبرة الفنية واليد العاملة الماهرة فكتب حسان بن النعمان إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان رسالة يطلب فيها دعمه بنفر من أهل مصر لإنشاء الميناء وبناء السفن فكتب عبد الملك إلى اخيه عبد العزيز - والي مصر حينذاك - لتوجيه ألف قبطي وأهلهم وأولادهم إلى معسكر «تؤنس» وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى «تؤنس» كما كتب إلى حسان أن يبني لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين إلى آخر الدهر . وأن يجعل على البربر جر الخشب لانشاء المراكب وان يضع بها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر ، وأن يغير منها على ساحل الروم فيشتغلوا عن القيروان نظراً للمسلمين وتحصيناً لشأنهم ، فوصل القبط إلى حسان وهو مقيم بتونس . فأجرى البحر من دار الصناعة حتى مرس « رادس » [وهي الفرضة الصغيرة على البحيرة التي تسمى باسم « آدس ADES] وجر البربر الخشب وجعل فيها المراكب الكثيرة وأمر القبط بعمارتها .

- في عام ٨٥ هـ ، حدث اختلاف بين حسان بن النعمان والي افريقية وبين عبد العزيز بن مروان والي مصر ، فعزل عبد العزيز حسان بن النعمان وامره بالقدوم اليه فعلم حسان ما أراد عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك فعمد إلى الجوهر والذهب والفضة فجعله في قرب الماء وأظهر ما سوى ذلك من الأمتعة وأنواع الدواب والدقيق وسائر أنواع الأموال ، فلما أقدم على أمير مصر ، أهدى اليه مائتي جارية من بنات ملوك الروم والبربر ، لكن عبد العزيز لم يقنع بذلك، فسلبه جميع ما معه من الخيل والأمتعة والوصائف والوصفان ، ورحل حسان بالأثقال التي بقيت له حتى قدم على الوليد بعد وفاة عبد الملك ،فشكا له ما صنع به عبد العزيز فغضب الوليد لذلك ثم قال حسان لمن معه ائتوني بقرب الماء . ففرغ منها من الذهب والفضة والجوهر والياقوت ما استعظمه الوليد وعجب من امر حسان فقال له الوليد : جزاك الله خيراً يا حسان فقال :

يا أمير المؤمنين ، انما خرجت مجاهداً في سبيل الله وليس مثلي يخون الله

ولا الخليفة فقال له الوليد : - أنا اردك الى عملك واحسن اليك وأنوه بك ، فحلف حسان « لا أولي لبني امية ابداً ».

- وخرج حسان في السنة التالية لغزو الثغور الرومية ، مقاتلاً عادياً ، ولقي مصرعه .

وهكذا لم يتمكن حسان من إنجاز بناء «تونس» ، وترك اكمال هذا المشروع الضخم لمن جاء بعده .

- أفاد حسان من فترة الهدوء التي أعقبت القضاء على ثورة الكاهنة وتصفية قاعدة العدوان البيزنطية « قرطاجنة » فأرسل مفارز الوحدات الخفيفة حتى وصلت إلى فاس وافتتحها » كما وجه قواته إلى كل موقع فتحقق الأمن والاستقرار في ربوع أفريقية وكانت الخبرة الطويلة التي اكتسبها حسان بن النعمان من إقامته في أفريقية مدة اثنتي عشر عاماً افضل معين لمعرفة الطبيعة البشرية والجغرافية وتحقيق ما أنجزه في أفريقية .

- وكان بناء تونس عملاً مكملاً لبناء القيروان . فأصبحت الأولى ثغراً بحرياً ، بينما كانت الثانية مركزاً عسكرياً وقاعدة برية متقدمة لقوات العرب المسلمين .

٧ - حروب القبائل ٨٦ - ٩٠ هـ

آ - الوضع العام :

- حدث بعد عودة حسان بن النعمان عن أفريقية حركة « ردة جديدة » ويعلل ابن خلدون هذه الظاهرة بما يلي :

[... ان الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة والسبب في ذلك اختلاف الآراء والأهواء ، وان وراء كل رأي منها وهوى عصبية تمانع دونها فيكثر الانتفاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت وان كانت ذات عصبية لأن كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة

وقوة وانظر ما وقع من ذلك بافريقية والمغرب منذ اول الاسلام ولهذا العهد، فان ساكن هذه الأوطان من البربر اهل قبائل وعصبيات فلم يغن فيهم الغلب الاول الذي كان لابن ابي سرح عليهم وعلى الافرنجة شيئاً وعاودوا بعد ذلك الثورة والردة مرة بعد اخرى وعظم الاثخان في المسلمين فيهم، ولما استقر الدين عندهم عادوا إلى الثورة والخروج والأخذ بدين الخوارج مرات عديدة.

قال ابن ابي زيد : ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة ولم يستقر كلمة الاسلام فيهم الا لعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده وهذا معنى ما ينقل عن عمر [ان افريقية مفرقة لقلوب اهلها] اشارة الى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحامله لهم على عدم الاذعان والانقياد ..] [١]

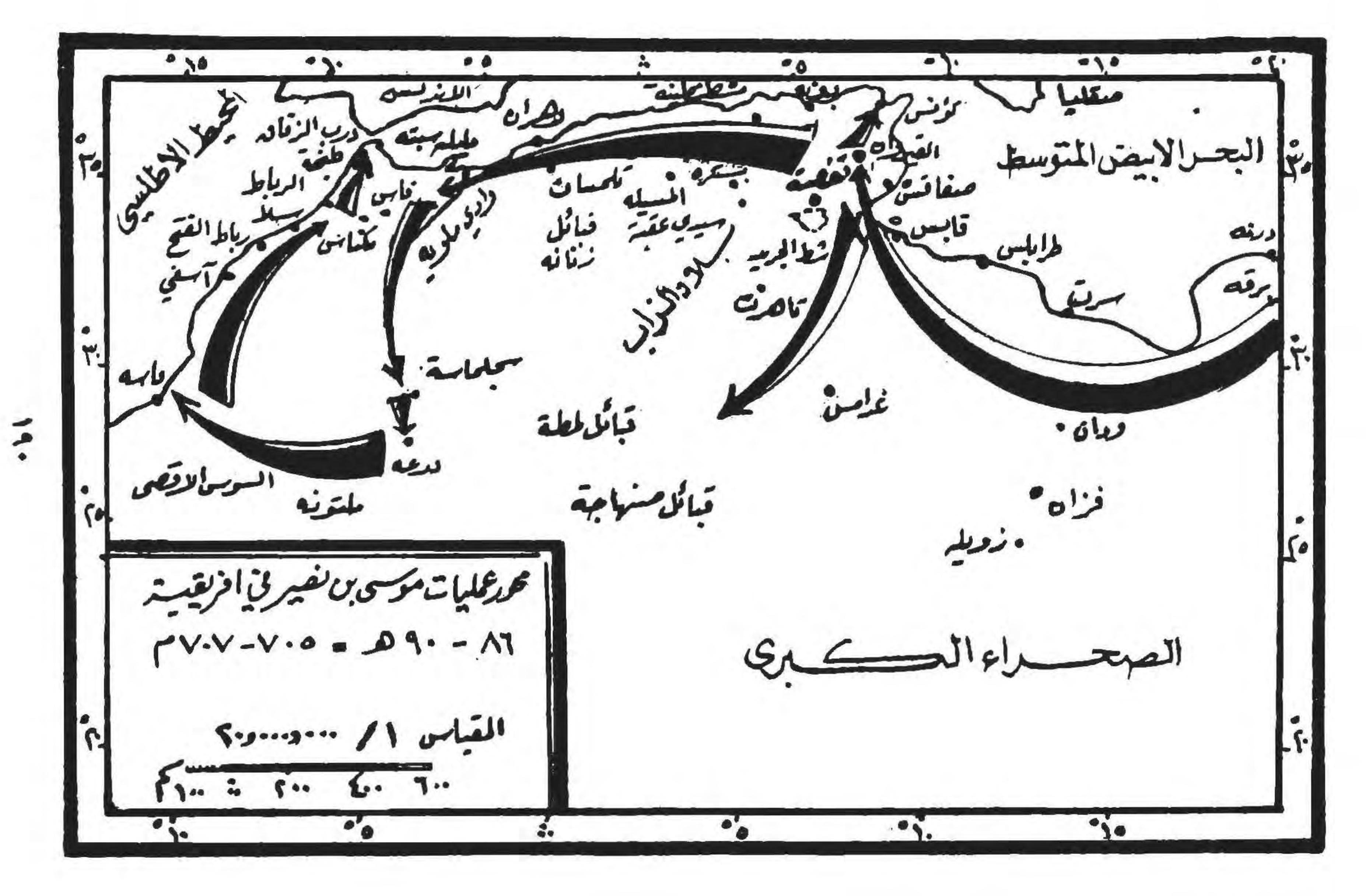
في نهاية عام ٨٥ هـ، تولى موسى بن نصير ولاية أفريقية خلفاً لحسان بن النعمان فوصلها حيث كان فيها ابا صالح، الذي استخلفه حسان قبل ذهابه إلى دمشق. وبدأ موسى بن نصير أعماله بحشد قواته وإعادة تنظيمها ودراسة الموقف ووضع مخطط عملياته .

– لقد عرف موسى بن نصير التشابه الكبير بين حياة العرب القبلية في الجاهلية والاسلام وبين حياة البربر القبلية خلال أعمال الفتوح وما حدث من تكرر « الردة » فكان أسلوب عمله تقليداً واتباعاً لما قام به الرسول الأعظم من أعمال لإخضاع القبائل العربية وتوحيدها تحت راية الاسلام . وقد أفاد موسى بن نصير من تجربة الخليفة الأول الصديق في غزو الشام والعراق وما كان لذلك من نتائج في ترسيخ جذور الاسلام بين العرب فكان تفكيره في فتح الأندلس .

وقد جاءت نتائج فتح الأندلس بالنسبة لترسيخ جذور الاسلام في افريقيـة وتوحيد القبائل البربرية مماثلة لما أحدثته فتوح الشام والعراق . ولا حاجة هنا للقول ان فتح الأندلس قـــد جاء تحقيقاً لهذا الهدف فقط، لكن هذا الهدف

....

(١) مقدمة ابن خلدون ٨٠ .



محور عمليات موسى بن نصير في افريقية
٨٦ - ٩٠ هـ = ٧٠٥-٧٠٧م
القياس ١/ ٢٠،٠٠٠،٠٠٠
البحر الابيض المتوسط
الصحراء الكبرى
المحيط الاطلسي
صقليا
تونس
القيروان
صفاقس
قابس
طرابلس
سرت
برقه
درنه
الاندلس
طنجة
سبته
تلمسان
المسيله
بسكرة
تاهرت
بلاد الزاب
شط الجريد
غدامس
ودان
فزان
زويله
سجلماسة
درعه
قبائل لمطة
قبائل صنهاجة
قبائل زناته
السوس الاقصى
ماسه
وادي ملويه

– هدف تحقيق الاستقرار وترسيخ جذور الاسلام في أفريقية وتوطيد الاستقرار – كان من الحوافز وفي جملة الاسباب التي دفعت المسلمين لاقتحام « الأندلس » وعبور المضيق .

ب – المرحلة الاولى : تأمين قاعدة الانطلاق

– أخذ موسى بن نصير في حشد قواته واعادة تنظيمها قبل الدخول في افريقية وعندما أنجز هذه المرحلة جمع قواته وألقى خطاباً جاء فيه :

[... انما انا رجل كأحدكم ، فمن راي مني حسنة فليحمد الله، وليحض على مثلها ومن رأى مني سيئة فلينكرها فاني اخطىء كما تخطئون واصيب كما تصيبون ، وقد امر الأمير : عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، اكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً ، فخذوها هنيئاً مريئاً ، ومن كانت له حاجة فليرفعها الينا وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان مع المواساة ان شاء الله ولا حول ولا قوة الا بالله ...] [1]

– وانطلق موسى بن نصير الى افريقية ، وعندما وصلها وجد ان الاضطراب قد عاودها فقدر موقفه ووضع مخطط عملياته ، وألقى خطاباً في جنده جاء فيه :

ايها الناس : انما كان قبلي على افريقية احد رجلين : مسالم يحب العافية ويرضى بالدون من العطية ويكره ان يكلم ويحب ان يسلم ، او رجل ضعيف العقيدة قليل المعرفة راض بالهويني وليس اخو الحرب الا من اكتحل السهر ، واحسن النظر وخاض الغمر وسمت به همته ولم يرض بالدون من المغنم لينجو ويسلم دون ان يكلم او يكلم ويبلغ النفس عذرها في غير خرق يريده ولا عنف يقاسيه متوكلاً في حزمه جازماً في عزمه مستزيداً في علمه مستنيراً لأهل الرأي في احكام الراي متحنكاً بتجاربه ليس بالمتجابن اقحاماً ولا بالمتخاذل احجاماً ،

....

(١) الامامة والسياسة ٢ – ٦١ – ٦٣ .

ان ظفر لم يزده الظفر الا حذراً وان نكب اظهر جلادة وصبراً راجياً من الله حسن العاقبة فذكو بها المؤمنين ورجاهم اياها لقول الله تعالى : (ان العافيـة للمتقين) اي الحذرين ..]

وبعد .. فان كل من كان قبلي كان يعمد الى العدو الأقصى ويترك عدوا منه ادني ينتهز منه الفرصة ويدل منه على العودة ويكون عوناً عليه عند النكبة ـ وايم الله ـ لا ايم هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله ارفعها ويذل امنعها ويفتحها على المسلمين بعضها او جميعها او يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ..] [1]

– استقر موسى بن نصير في قاعدة عملياته في القيروان ، ووضـع مخططه موضع التطبيق بهدف تأمين قاعدة العمليات فنظم ثلاثة مجموعات قتالية كالتالي :

١ – مجموعة قوتها خمسمائة فارس بقيادة عبد الملك بن حنشين بمهمة تطهير جبل زغوان القريب من تونس والواقع على مسافة مسيرة يوم كامل من القيروان والقضاء على المتمردين .

٢ – مجموعة قتالية بقيادة ابنه عبد الله بن موسى بمهمة تطهـير بعض جيوب المقاومة في افريقية .

٣ – مجموعة قتالية بقيادة ابنه مروان بن موسى بمهمـة تطهير بعض جيوب المقاومـــة ..

وانطلقت المجموعات الثلاثة ،ونجحت في ابادة المقاومات واستسلمت مجموعات كبرى فأخذت أسرى ، وكان عدد الأسرى يزيد على كل ما أمكن اعتقاله حتى قيل ان خُمس الأسرى بلغ ستون ألفاً .. واذا كان لذلك دلالته فهو في تصميم موسى بن نصير على تمزيق المقاومة مرة واحدة والى الأبد ..

....

(١) الامامة والسياسة ٢ – ٦١ – ٦٣ .

ج – التأمين البحري لافريقية :

غزوة الأشراف[1]

– بعد أن وطد موسى بن نصير أسس قاعدة عملياته في القيروان أراد تأمين حرية العمل حتى لا تستطيع بيزنطة التأثير على مسيرة أعماله القتالية ، وذلك بانشاء أسطول بحري قوي يعمل مباشرة لحماية السواحل الافريقية .. ولهذا قرر اكمال المشروع الذي بدأه حسان بن النعمان فتابع بناء مدينة « تؤنس » وعمل على تطوير دار الصناعة وأصبح لديه قوة مائة مركب ..

– في نهاية عام ٨٥ هـ ، وبداية ٨٦ هـ ، أصدر موسى بن نصير أوامره الانذارية ، التأهب لركوب البحر ، وأعلم المقاتلين انه راكب بنفسه [**فرغب الناس وتسارعوا فلم يبق شريف ممن كان معه الا وقد ركب الفلك، فعقد موسى لواء هذه الغزوة لابنه عبد الله بن موسى وولاه عليهم وأمّره ..**]

– لقد أراد موسى عندما أعلن عن ركوبه بنفسه البحر دفع المقاتلين أفضلهم والناس أشجعهم لهذه الغزوة ، التي سميت غزوة الأشراف لما ضمته من الأشراف الأبطال ، وعندما انتهت الاستعدادات وجه موسى هذه القوة المكونة من تسعمائة الى ألف مقاتل لغزو « صقلية » .

– قاد عبد الله بن موسى قوته البحرية حتى وصل صقلية ، وقام بانزال بحري ناجح واستطاع فتح بعض المواقع مع مدينة ساحلية ، وغنم أموالاً كثيرة حتى بلغ سهم الرجل مائة دينار ذهباً ، ثم عاد من غزوته الى تؤنس دون أن تصاب قواته بخسائر في الأرواح أو المعدات .

– وفي عام ٨٦ هـ ، وجه موسى بن نصير مجموعة قتالية اخرى بقيادة عياش ابن أخيل بمهمة الهجوم على صقلية مرة أخرى ، فشتا عياش في البحر ووصل جزيرة صقلية وقام بالانزال على شواطئها وفتح مدينة سرقوسة ثم رجع الى تونس بعد تنفيذ المهمة بنجاح ..

---

(١) الامامة والسياسة ٢ / ٧٠ – ٧١ .

- بعد أن نجح موسى بن نصير بتأمين السواحل الافريقية من كل تدخل بيزنطي ، وبعد أن أصبح لدى المقاتلين الثقة التامة بقدرتهم على التوغل في فتوحاتهم ، اخذ موسى بن نصير بتطبيق الجزء الثاني من مخططه لاخضاع المتمردين من قبائل البربر ..

د - اخضاع القبائل المتمردة [1] :

- كانت قبائل هوارة وزناتة تتمركزان في منطقة المغرب الأوسط « الجزائر حالياً » .

- وكانت قبيلة كتامة تتمركز في « درعة » الواقعة على أربعة فراسخ من سجلماسة .

- وكانت صنهاجة في وادي ملوية في المغرب الأوسط « الجزائر » .

- أما قبائل مصمودة فكانت متمركزة في « أطلس العليا » ..

- وكانت قبائل البتر والبرانس في منطقة طنجة ، في المغرب الأقصى « المغرب حالياً » ..

وضع موسى بن نصير مخطط عملياته على اساس تدمير مقاومات هذه القبائل على التتابع وعدم الانطلاق في العمق قبل تصفية كل مقاومة ..

١ - كانت قبيلة كتامة قد أعلنت ولاءها وتأييدها لموسى بن نصير ووفدت عليه ، فعين لها من يتولى أمورها وأخذ منهم الرهائن ، وحاولت رهون كتامة الفرار الى قبيلتهم فوجه الخيول في طلبهم وأتى بهم ، فأراد صلبهم فقالوا : **[لا تعجل ايها الأمير بقتلنا حتى يتبين امرنا ، فان آباءنا وقومنا لم يكونوا ليدخلوا في خلاف ابداً ونحن بين يدك ، وانت على البيان اقدر منك على استحيائنا بعد القتل ..]** فأوقرهم حديداً وأخرجهم معه الى كتامة وخرج

....

(١) الامامة والسياسة ٢ - ٦٢ - ٦٨ ، تاريخ المغرب ٢١٠ - ٢١١ ، البيان المغرب ١ - ٣٢ - ٣٤ .

هو بنفسه فلما بلغهم خروج موسى تلقاه وجوه كتامة معتذرين فقبل منهم وتبينت له براءتهم واستحيا رهونهم ..

٢ – وجه موسى بجموعة قتالية مكونة من ألف فارس بقيادة عياش بن أخيل بمهمة اخضاع تمرد « هوارة وزناتة » ، وعندما وصلت المجموعة الى مستقر هذه القبائل قامت بهجوم مباغت ، وأبادت المقاومة ، وألقت القبض على الأسرى وعرضت هوارة وزناتة الصلح فصالحهم المسلمون .

٣ – نظم موسى بن نصير بجموعة قتالية مكونة من ستة آلاف مقاتل ، أربعة آلاف من أهل الديوان وألفين من المتطوعين ، وقادهم بنفسه لقتال صنهاجة والاغارة عليها بهجوم مباغت بعد أن توفرت لديه المعلومات الدقيقة عن عدم استعداد صنهاجة القتالي .

دفع موسى عياض بن عقبة بن نافع لقيادة مقدمته ، وعين لقيادة ميمنته المغيرة بن أبي بردة ، وقاد ميسرته زرعة بن أبي مدرك .. ثم تقدم بقوته حتى وصل وادي ملوية ، وقام بهجومه المباغت فأعمل في « صنهاجة » قتلاً ومن كان معها من قبائل البربر ، وكان قتله لهم قتل الفناء ، وسبى منهم سبياً كثيراً بلغ مائة ألف ، ثم عاد موسى بعدها الى « القيروان » ..

٤ – كانت قبيلة « البرانس » من أكبر قبائل البربر وأكثرها قوة ، وكان ملكهم « كسيلة » هو الذي قتل عقبة بن نافع في « تهوذة » ثم قتله زهير بن قيس البلوي ، وكان قسم كبير من « البرانس » يستقر في « سجومة » من المغرب الأوسط .

– قرر موسى بن نصير تصفية مقاومة « البرانس » فنظم بجموعة قتالية من عشرة آلاف مقاتل وأعطى اللواء ابنه مروان بن موسى وعين لمقدمته عياض بن عقبة بن نافع وللميمنة زرعة بن أبي مدرك وللميسرة المغيرة بن بردة القرشي وللساقة « المؤخرة » نجدة بن مقسم ..

تقدمت المجموعة القتالية حتى وصلت موقع « سجن الملوك » قريباً من نهر

ملوية ، توقف العرب المسلمون ، وخلف موسى الاثقال في حراسة ألف مقاتل بقيادة عمرو بن أوس ثم تابع المسلمون تقدمهم حتى نهر ملوية ، وكان النهر في فترة الفيضان .. وتوقف فترة قصيرة تم خلالها استطلاع النهر وانتقاء موضع للعبور غير ذلك الذي سبق عبور عقبة بن نافع منه ، ثم قام العرب المسلمون بالعبور ووقفوا في مواجهة خصومهم المستعدين للقتال ..

بدأت المعركة بين الطرفين [واقتتلوا قتالا شديداً في جبل شديد لا يصل اليهم الا من ابواب معلومة ، وبعد قتال استمر ثلاثة ايام ، انهزم اهل سجومة ففتح المدينة وقتل ملوكها وأمر اولاد عقبة بن نافع « عياضاً وعثماناً وابا عبيدة » ان يأخذوا حقهم من قاتل ابيهم ، فقتلوا من اهل سجومة ستمائة رجل من كبارهم ، ثم قال لهم موسى « كفوا » ، « فكفوا » وقال عياض بن عقبة [أما والله لو تركني ما امسكت عنهم ومنهم عين تطرف] .

٥ - بدأ موسى بن نصير باستثمار الظفر ، والافادة من قوة القاعدة التي أصبح ينطلق منها ، فبدأ مطاردته حتى أخضع القبائل ، هذه التي ارتدت بعد مسير حسان بن النعمان الى المشرق وتلك التي لم تكن قد خضعت قبلاً للمسلمين ، واستمر موسى بن نصير في تقدمه حتى المغرب الأوسط ،وولاية طنجة ،وأخذت القبائل تفر من أمامه متوجهة نحو الغرب فتتبعها عبر « السوس الأدنى » - ريف طنجة - واستمر في تقدمه حتى وصل «سجلماسة » ووادي درعة » .

٦ - بعد تلك الانتصارات الرائعة ، نظم موسى بن نصير مجموعة قتالية مكونة من خمسة آلاف مقاتل بقيادة ابنه مروان ، ووجهها نحو « السوس الأقصى » وبينها وبين السوس الأدنى مسيرة شهرين . وتوجه مروان بن موسى نحو هدفه وأمكن له تحقيق انتصارات كبيرة على المقاومات التي جابهته .

٧ - وفي الوقت ذاته وجه موسى بن نصير مجموعة قتالية أخرى بقيادة زرعة ابن أبي مدرك بمهمة اخضاع قبائل المصمودة « من البربر البرانس » . والمتمركزة في أطلس العليا . وتوجه زرعة إلى هدفه ، فلم يلق حرباً من المصامدة الذين

استقبلوه باعلان خضوعهم وقدموا له رهائنهم . وأخذ الاسلام ينتشر بين قبائل البربر في أقصى المغرب . وبث موسى فيهم الدين والقرآن وكان يأمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين ، وبذلك لم يبق في أفريقية من ينازع موسى سوى منطقة طنجة ، ومنطقة سبتة .

٨ – كانت ولاية طنجة تابعة « لجوليان » حاكم سبتة ، وكانت هذه الولاية تضم مدناً كثيرة تتسع لمسيرة شهر ويدافع عنها البربر والروم . (١)

دفع موسى بن نصير ، مقدمته بقيادة مولاه طارق بن زياد ، وتوجه نحو ولاية طنجة . ولم تلبث المدن والقلاع أن تساقطت تباعاً أمام زحف العرب المسلمين حتى لم يبق سوى مدينة طنجة فحاصرها موسى ودفع بمجموعات من الفرسان لعزل المدينة وشدد قبضة الحصار حتى افتتحها وولى عليها والياً وأنزل فيها حامية من المسلمين وجعلها قاعدة متقدمة « قيروانا » للمسلمين . وعين ابنه مروان قائداً لهذه الحامية المكونة من ألف وسبعمائة مقاتل .

٩ – تابع موسى بن نصير تقدمه في اتجاه « سبتة » واصطدم بقوات «جوليان» وكانت هذه القوات جيدة التنظيم والتدريب والأمداد بحيث لم يتمكن العرب المسلمون من احراز نصر حاسم فقرر ضرب حصار حولها وعزلها ، لكن المقاومة لم تتأثر بسبب تأمين الامداد بحراً من الأندلس فقرر موسى بن نصير إخضاعها لأسلوب الحصار الطويل والتضييق عليها وتنظيم اغارات مستمرة لاستنزاف قدرتها واوكل هذه المهمة لطارق بن زياد بعد أن ترك عنده تسعة عشر ألفاً من البربر بكامل أسلحتهم وعتادهم . كما ترك مع هؤلاء مجموعة صغيرة من العرب المسلمين بمهمة تعليم القرآن وفرائض الاسلام .

١٠ – بعد هذه الفتوحات قرر موسى بن نصير العودة إلى القيروان . وكانت مدينة « مجانة » التي تبعد خمسة أيام عن القيروان لا تزال ممتنعة وفي حال عصيان

---

(١) فتوح مصر والمغرب ٢٧٥ – ٢٧٦ . فتوح البلدان ، البلاذري ٢٣٢ .

بعد أن كان بسر بن أرطاة قد فتحها للمرة الأولى. فدفع موسى بن نصير بمجموعة قتالية وأمكن له استعادة فتحها مرة اخرى . وبذلك انتهت عملية إخضاع أفريقية بصورة كاملة .

۱۱ - تأكدت لموسى بن نصير مرة أخرى ومن خلال الاتصال الوثيق بين مقاومة سبتة وامدادها من اسبانيا ضرورة فرصة السيطرة البحرية لعزل كل اتصال خارجي وتأمين السواحل الافريقية . فوجه عام ۸۹ هـ مجموعة قتالية بقيادة عبد الله بن مرة بمهمة الهجوم على سردينية « سردانية » وافتتاح مدنها . وأبحرت هذه القوة نحو هدفها ، ونجحت في تنفيذ واجبها حيث استولت على كميات كبيرة من الذهب والفضة والمواد الأخرى كما أخذت ثلاثة آلاف أسير حملتهم معها الى افريقية .

- وفي السنة ذاتها : ۸۹ هـ ، وجه موسى بن نصير مجموعة قتالية أخرى بقيادة ابنه عبد الله بمهمة احتلال جزيرتي « ميورقة » و « منورقة » الواقعتين بين صقلية وجزيرة « الأندلس » ونجح عبد الله بن موسى بتنفيذ واجبه المحدد له[1].

- كان من نتيجة العمليات - في البر والبحر - عزل أفريقية عن المؤثرات الخارجية فتحقق الاستقرار في ربوعها ، وخيم الامن في ولاياتها . وأصبح بالامكان التفكير للانطلاق نحو آفاق جديدة .

---

(۱) تاريخ المغرب العربي ۲۱۹ . الامامة والسياسة ۲ - ۷۰ - ۷۱ .

القسم الثاني

الفصل الثالث

فن الحرب وفتح افريقية والمغرب

١ – الانطلاق من قواعد أمنية .
٢ – تحديد الافضليات على مسارح العمليات .
٣ – المباغتة .
٤ – التنسيق بين العمليات البرية والبحرية .
٥ – الاهتمام بالشؤون الإدارية .
٦ – الأمن والاستطلاع .
٧ – الحرب النفسية .
٨ – كفاءة القيادة .
٩ – الروح المعنوية وإرادة النصر .
١٠ – إقامة علاقات عامة جديدة .
١١ – دروس النكسات .

قراءات

آ ـ عبد الله بن سعد بن أبي سرح .
ب ـ معاوية بن حديج السكوني .

حـ ـ عبقة بن نافع الفهري .

د ـ أبو المهاجر دينار .

هـ ـ عبد الله بن الزبير بن العوام .

و ـ بسر بن أرطاة .

ز ـ زهيربن قيس البلوي .

ح ـ حسان بن النعمان .

فن الحرب وفتح افريقية والمغرب

ـ بدأت عمليات الجبهة الغربية بفتح مصر عام ٢٠ هـ ، ثم حدث توقف قصير واستؤنفت العمليات بفتح برقة عام ٢٧هـ واستمرت العمليات بين مد وجزر حتى عام ٩٠ هـ حيث استقر الأمر نهائياً للعرب المسلمين وتوطدت دعائم الاسلام في أفريقية والمغرب وجاء فتح الأندلس تتويجاً لهذه كلها . وخلال هذه الفترة التي استمرت سبعون عاماً تقريباً حدثت تطورات كبرى في فن الحرب عند العرب المسلمين وأمكن ترسيخ القواعد والمبادىء والدروس المستقاة من المعارك المتتالية فأخذت مبادىء فن الحرب تظهر في أقوال القادة وأعمالهم بشكل واضح .

وكان من عوامل هذا التطور :

١ ـ زيادة حجم القوات المقاتلة . فبينما كان جيش فتح مصر بقيادة عمرو بن العاص لا يزيد على ثمانية آلاف مقاتل ، ارتفع عدد هذا الجيش أيام عبد الله بن سعد ابن أبي سرح إلى عشرين ألفاً . ووصل إلى أربعين ألفاً في عهد حسان بن النعمان الغساني . وتضاعف هذا العدد بانضمام البربر في عهد موسى بن نصير .

٢ ـ اتساع مسرح العمليات. فالمسافة بين القيروان والأطلسي تزيد على ألفي كيلومتر ويضاف إلى ذلك العمق الاستراتيجي لهذا المسرح ما بين الساحل والصحراء ، علاوة على هامش الحيطة «الأمن» والمكون من الجزر البحرية في البحر الأبيض المتوسط .

٣ ـ صعوبة الامداد والتموين على هذا المسرح الكبير للعمليات ، لا سيما عند تحركات قوات كبيرة .

٤ ـ وجود عناصر مختلفة في جيش العرب المسلمين مما تطلب وجود أجهزة

قيادية وعناصر قيادية على درجة عالية من الكفاءة. وكانت المساواة والعدالة والقيم الروحية التي جاء بهـا الاسلام عاملاً حاسماً في إذابة التناقضات بين الأجناس المختلفة . والاقلال من خطورتها كما كان حجم الواجب الثقيل والهدف الكبير الذي حدده الاسلام للمسلمين وواجب نشر الرسالة كافياً لصهر المؤمنين في بوتقة واحدة . لكن ذلك كله لا يمنع من القول أن وجود عناصر مختلفة وعقليات متباينة قد تطلب كفاءة قيادية لانسطيع إيقاظ الحماسة باستمرار وجعـل هذا الهدف الكبير ماثلاً أبداً أمام اعين المقاتلين على اختلاف قبائلهم وأجناسهم .

– لم تكن أعمال القتال في افريقية والمغرب سهلة ، فقد حدثت نكسات خطيرة ووقعت أحداث ومعارك مأساوية ، وظهرت حركات تمرد عنيدة قـد تكون من أبرزها حركة الكاهنة وحركة كسيلة . وأفاد قادة العرب المسلمين من هذه التجارب بقدر ما أفادوا من التجارب الناجحة وتكون من حصالة ذلك كله دروس هامة أبرزت مبادىء فن الحرب بشكـل واضح وكان في جملة هذه الدروس ضرورة حشد القوات ، وتأمين متطلباتها الادارية والحفاظ على روحها المعنوية واستعدادها القتالي هذا إلى جانب دراسة موقف العدو وحجم قواتـه ومعرفة طبيعة الأرض واتخاذ تدابير الأمن والقيام بأعمال الاستطلاع المستمرة .
ولعل من أوضح مبادىء الحرب التي ظهرت في أعمال أفريقية ما يلي :

١ – الانطلاق من قواعد أمنية ودفع هذه القواعد باستمرار نحو الأمام .

٢ – تحديد الافضليات على مسارح العمليات وتحديد محور الجهد الرئيسي والمحاور الثانوية ..

٣ – الحرص على تطبيق مبدأ « المباغتة » الزمانية ، والمكانية ، وحجم القوات او اسلوب القتال ..

٤ – التنسيق بين العمليات البرية والبحرية ، ووضع نظرية هامش الأمن وذلك بالسيطرة على الجزر القريبة لابعاد نفوذ بيزنطة عن البحر الابيض المتوسط .

٥ – الاهتمام بالشؤون الادارية ، في حرب الصحراء ..

٦ - الحرص على أمن القوات ، والاهتمام بأعمال الاستطلاع وتقاطع المعلومات .

٧ - العناية بالحرب النفسية ، واستخدامها لخدمة القوات المسلحة .

٨ - كفاءة القيادة ، واختيار مكان القائد الصحيح في مختلف مراحل الاعمال القتالية .

٩ - الاهتمام بالروح المعنوية للمقاتلين ، وتعزيز ارادة النصر لديهم .

١٠ - بناء مجتمع جديد واقامة علاقات عامة فيه .

تلك هي بعض الدروس الواضحة لا كلها . وقد كانت الدروس التي ترجمها القادة والمقاتلون إلى مفاهيم ثابتة هي نواة « فن الحرب » المتطور . وقد يكون من المفيد المرور بها سريعاً لابراز معالمها .

ـ ان اعادة معالجة هذه المبادىء ، واستعادة ما يستجد عليها من تطورات انما يعزز القول أن معارك العرب المسلمين قد حدثت وفق تنهيج علمي صحيح بعيد كل البعد عن الارتجال والعفويةوالبدائية وأن ما أحرزه العرب من انتصارات وما حققوه من فتوحات لم يكن مجرد هجمات سهلة أو اغارات مباغتة وانما نتيجة للارادة الثابتة والتصميم الذي لا يتزعزع لخدمة الهدف النبيل الذي عمل المسلمون له .

ـ لقد كان عدد المسلمين لا يتجاوز بضعة آلاف، تزايد عددهم بانضمام من أسلم من أهل الأقاليم فكانت الفتوحات تطبيقاً عملياً لاستراتيجية بقعة الزيت سواء في اكتساب مساحات جغرافية أو في اكتساب مزيد من القوة القتالية .

ـ وكانت استراتيجية العرب المسلمين تقوم على استخدام المبادأة وعدم تركها لخصومهم أبداً .

وكانت استراتيجية العرب المسلمين تقوم على الهجوم باستمرار . وتطوير الدفاع ليكون هجومياً وأوضح نموذج لذلك الغزوات الاستطلاعية في البر واحتلال الجزر في البحر .

ـ ومن خلال هذه الاستراتيجية، وتطبيقاتها الناجمة عن تطور فن الحرب الذي يضم الصفحات التالية بعضاً من ملامحه .

١ - الانطلاق من قواعد أمنية

ـ لم تكن قواعد جيوش العرب المسلمين مجرد مراكز للاقامة فقط . بـــل أصبحت مراكز للاشعاع الديني ومناطق للحشد ومعسكرات اقامة استعداداً للحـــرب .

ـ عندما فتح العرب المسلمون مصر جعل عمرو بن العاص من «برقة» قاعدة متقدمة ووضع فيها حامية يقودها عقبة بن نافع .

ـ وعندمـــا تقدم العرب بفتوحاتهم ، جعل معاوية بن حديج السكوني من قمونية قاعدة متقدمة للعمليات .

ـ وجاء عقبة بن نافع فأراد إقامة قاعدة متقدمة داخلية . [**ليست ضاربة في الشمال فتكون جبلية ولا ضاربة في الجنوب فتكون رملية**] ووقع اختياره على القيروان بهدف :

١ ـ عزل جيش العرب المسلمين عن السكان للحفاظ على الأمن وسرية المعلومات .

٢ ـ وضع القوات في وضع استعداد دائم للحرب.

٣ ـ حتى تكون « محطاً لقوافل المقاتلين ومراحاً لعسكرهم » .

تحطيم هيمنة البيزنطيين والتأكيد على أن فتح العرب المسلمين فتحاً دائمـــاً وليس مجرد غارة عابرة مصيرها إلى زوال . [**فكانت مدينـــة القيروان عزاً للاسلام الى آخر الدهر ..**]

وعندما انتهى الأمر إلى حسان بن النعمان الغساني ، بدأ ببناء قاعدة بحرية [لتكون مستقراً للاسطول العربي ـ الاسلامي تنطلق منه في حالتي الدفاع والهجوم فتغير بهذا الاسطول على ساحل الروم. فيشغلهم بأنفسهم عن الاغارة على افريقية ..]

وكان الهدف من بناء « تونس » :

١ً – اقامـة قاعدة متقدمة « برية – بحرية » للانطلاق بعمليات مشتركة .

٢ً – اقامة دار لصناعـة السفن ، من أجل تعزيز القدرة القتالية للقوات البحرية .

٣ً – وقاية افريقية من كل هجوم مباغت .

– لم يتمكن حسان بن النعمان من انجاز مشروعه فجاء عبد الله بن الحجاب أيام هشام بن عبد الملك – أي بعد ثلاثين عاماً من بدء العمل – فأكمل المشروع الضخم الذي بقي خالداً مع الدهر .

– لقد كان قادة العرب المسلمين ينظمون قواعدهم المتقدمة مـع الأخذ بعين الاعتبار، الظروف السياسية والمتطلبات العسكرية، والاستراتيجية ، والظروف المناخية والحاجات الحياتية والمواقع الجغرافية وهذا سبب خلود قواعد المسلمين وتحولها إلى مدن دائمة وخالدة .

– وكان انجاز هذه القواعد تخطيطاً وتنفيذاً من أول عوامل انتصار المسلمين في عملياتهم القتالية . وشاهداً على تصميم العرب المسلمين وارادتهم في تنفيـذ مخططاتهم لنشر الدعوة الاسلامية وتوفير المناخ الملائم لبقائها واستمرارها .

٢ – تحديد الافضليات على مسارح العمليات

كان الخليفة الأموي هو الذي يعطي أفضلية العمليات على الجبهات المختلفة مثل جبهة الشمال مع بيزنطة والجبهة الشرقية في فارس والجبهة الغربية في مصر وافريقية ثم يكرس الخليفة بعد ذلك الامكانات الضرورية لنجاح العمليات .

– أمـا أفضلية العمل على مسرح العمليات فتعود إلى قائد مسرح العمليات ذاته وفـق تقديره للموقف وتحديد درجة الخطورة . وكان الخلفاء أو ولاة مصر يتدخلون اذا ما تطلب الأمر ذلك ، ولو أن هذا التدخل كان محدوداً وفي إطار الخطوط العامة مثل زج القوات البحرية وتخصيص امكانات إضافية والدعـم بقوات احتياطية .

أظهر القادة في فتح أفريقية قدرة على التمييز بين درجات الخطورة واعطاء الأفضليات في العمليات . وكان الخطر يتمثل على صورتين :

١ - التدخل البيزنطي المباشر - بانزال القوات - مثل الانزال في قرطاجنة وما نتج عن ذلك من مقتل زهير بن قيس البلوي .

٢ - التدخل البيزنطي غير المباشر ، لدعم الثورات المضادة وحركات التمرد.

- وأظهر بعض القادة كفاءة خاصة في تقدير الموقف العام وتحديد الواجبات المختلفة على نحو مـا فعله عقبة بن نافع في المرحلة الأولى من عملياته ومثلما فعله حسان بن النعمان في القضاء على ثورة الكاهنة ثم التحول إلى قرطاجنة وكذلك ما فعله موسى بن نصير في توجيه المجموعات القتالية المختلفة إلى أهداف متباعـدة وابقاء القوة الرئيسية على استعداد تام للعمل والتدخل إذا ما تطور الموقف وذلك خلال المرحلة النهائية من فتح المغرب الأقصى .

- لقـــد كانت المعلومات المتوفرة بفضل الاغارات الاستطلاعية المستمرة وبفضل البربر الذين دخلوا الاسلام وصدق إيمانهم من العوامل الأساسية في تقدير الموقف السليم واتخاذ القرار المناسب . .

وكانت المرونة في التحركات والسرعة في الانتقال من محور إلى محور آخر من العوامل الحاسمة في نجاح المخططات القتالية ..

لكن المعارك بصورة عامة ومقدار النجاح فيهـــا يعود بالدرجة الأولى إلى كفاءة القادة في تحديد محور الجهـد الرئيسي والمحاور الثانوية وتخصيص القوات اللازمة للتعامل مع الأهداف المختلفة .

٣ - المباغتـــة :

- اعتمد القادة العرب مبدأ المباغتة عاملاً اساسياً في اعمالهم القتالية ، وكان تطبيقهم لهذا المبدأ يتوافق مع الظروف ومواقف القتال وأساليب القـــادة .. فعندما طال أمد القتال بين عبد الله بن سعد وجرجير ملك افريقية عام ٢٥ هـ ،

وبعث الخليفة عثمان قوة دعم سميت «بجيش العبادلة» ، عقد القادة مؤتمراً لمناقشة الموقف وطرح عبد الله بن الزبير فكرة مباغتة الخصم بهجوم غير متوقع في تاريخه ، ذلك أن أسلوب القتال الذي اتبع بين العرب المسلمين وخصومهم طبق على اساس الاشتباك في المعركة من الساعات الاولى للنهار وحتى الظهيرة،فاقترح عبد الله بن الزبير تقسيم الجيش الى مجموعتين قتاليتين ، تقاتل اولاهما كالعادة من الفجر وحتى الظهر ثم تنطلق المجموعة الثانية بهجومها عند عودة المجموعة الاولى

– وطبق هذا الاقتراح بعد اقراره ، وكانت المباغتة عاملاً حاسماً في احراز النصر وكسب معركة « عقوبة » ..

– وعندما بدأ عقبة بن نافع عملياته « في المرحلة الاولى » امتنعت عليه « خاور » وتحصنت بقلاعها ومواقعها الحصينة ، ووجد عقبة ان اطالة أمد الحصار سيستنزف من قوته دونما فائدة ، فوضع مخططه على اساس تطبيق مبدأ المباغتة فغادر « خاور » وبعد ان قطع مسافات في الصحراء عاد بصورة « مباغتة » وقد اطمأن القوم وانصرفوا الى شؤونهم الحياتية ، وكانت مباغتة مطلقة نتج عنها فتح قلاع « خاور » وحصونها ..

– واستخدم موسى بن نصير اسلوب المباغتة بارسال مجموعات مختلفة الى أماكن بحيث يشكل ظهور جند العرب المسلمين مباغتة غير متوقعة ، وبهذا الاسلوب ، وبالافادة من سرعة التحركات والمرونة أمكن له اخضاع الحركات المناوئة وفتح الحصون المنيعة .

– لقد كانت سرعة التحركات والمرونة ، والظهور في اماكن غير متوقعة وتجاوز المفاوز والصحارى ، من الاساليب التي اتبعها قادة العرب المسلمين لتحقيق المباغتة المكانية ..

– وكانت مخططات العمليات ، وتنظيم أعمال الهجوم في وقت لا يتوقعه العدو من الاساليب التي طبقها العرب المسلمون لتحقيق المباغتة الزمانية .

– وكان اسلوب القادة في حشد قواتهم ، واستخدام المتطوعين من البربر ومن

أسلم منهم، هي من الاساليب التي استخدمها قادة العرب المسلمين لتحقيق المباغتة في التنظيم والتسليح وحجم القوى وكانت المباغتـة من اول المبادىء التي حرص قادة العرب على تطبيقها فكانت في جملة عوامل نصرهم على خصومهم .

٤ - التنسيق بين العمليات البرية والبحرية

أفاد الخلفاء بعد معاوية بن أبي سفيان من تجارب الخليفة الأموي الأول في مجال التنسيق بين العمليات البرية ـ البحرية ، وأعمال الغزو البحري . وكانت هذه التجارب الرائدة منهلاً استوعب أبعاده القادة جميعاً . فأخذوا ينظرون إلى البحر الأبيض المتوسط على أنه مصدر خطر التهديد البيزنطي والمجال الحيوي الواجب انتزاعه من أيديهم كما اعتبروا الجزر المنتشرة فيه على أنها هامش الأمن والحيطة الواجب السيطرة عليها لتحقيق الاستقرار في سواحل بلاد الشام ومصر وأفريقية والمغرب ..

- ان متابعة سيطرة المسلمين ، على البحر الأبيض المتوسط وأعمال الغزو فيه تظهر الارتباط الوثيق بين تطوير العمليات البرية ، وتوسع النشاط البحري ولقد جاء تطوير دار بناء السفن في الروضة وانشاء أسطول مصر ضمن هذا المفهوم الذي أصبح جزءاً من عقيدة الدولة القتالية والتي طبقها بنجاح حسان بن النعمان حيث عمل على بنـــاء « تونس » وأنشأ دار الصناعة فيها ونظم أسطولاً مستقلا لعمليات أفريقية .

- وفي الوقت ذاته أصبح احتلال الجزر المقابلة لشواطىء بلاد العرب المسلمين جزءاً من تدابير الأمن . فكان القادة العرب المسلمون من أول القادة العرب الذين أوجدوا فكرة « هامش الأرض » لكن بمفهوم محدود نسبياً .

لقد بدأ العرب المسلمون احتلال الجزر القريبة من شواطىء الشام بعـد أن استقر حكمهم فيها . وعندما تطور الموقف في مصر ، وظهر الأسطول العربي فيهـــا بدأت عملية غزو الجزر الايطالية واليونانية وأمكن السيطرة على الجزر في وسط البحر الأبيض المتوسط ، ومن هذه الأعمال يمكن ذكر ما قام به معاوية

ابن حديج السكوني حيث غزا قبرص عــام ٢٧هـ ثم قام بغزو البحر عامي ٣٦ و ٣٩ هـ وفي عام ٤٦ وجه معاوية قوة بحرية بقيادة عبد الله بن قيس ففتح صقلية وفي عام ٤٩ غزا عقبة بن نافع الروم في البحر واستمرت أعمال غزو القسم الأوسط من البحر الأبيض المتوسط وعندما شيدت تونس ، أصبحت قاعدة لتوقف أسطول مصر الذي يتزود بالتموين والامداد فيها ثم ينطلق في عملياته . وعندما جاء موسى بن نصير ، وأمكن له تحقيق الاستقرار في أفريقية أخذ في التفكير بتأمين أفريقية بحرياً ، ووجه قواته لاحتلال جزر الباليثار مــع متابعة غزو السواحل الايطالية واليونانية ، بحيث يمكن القول أن عمليات الغزو البحري قد سارت متوافقة في جدولها الزمني وفي مسيرة احداثها للعمليات البرية والتوسع الأرضي وان وصول العرب إلى الأطلسي غرباً قد مهد السبيل للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط بكامله حتى أصبح يعرف باسم « بحر الشام » بعد أن كان يعرف « بالبحر البيزنطي أو بحر الروم » .

ـ لقد انتهت هذه التجارب بولادة مفهومين واضحين عند قادة العرب المسلمين :

١ ـ مفهوم « هامش الأمــن » وضرورة السيطرة على جزر البحر الابيض المتوسط لتحقيق الأمن والاستقرار في بلاد العرب المسلمين والقضاء على النفوذ البيزنطــي ..

٢ ـ مفهوم التنسق بين العمليات البرية ـ البحرية للقيام بالعمليات الكبرى .

٥ ـ الاهتمام بالشؤون الادارية :

لم تكن قوات العرب المسلمين التي افتتحت مصر بقيادة عمرو بن العاص تزيد على ثمانية آلاف مقاتل .. ثم زاد حجم القوات حتى وصل الى عشرين الف مقاتل في معركة العقوبة بقيادة عبد الله بن ابي سرح . وفي عــام ٧٤هـ ارتفع عدد جيش فتح افريقية بقيادة حسان بن النعمان الى ٤٠,٠٠٠ مقاتل .

ـ لم يكن جيش حسان بن النعمان كله من العرب ، وانما ضم تحت لوائه البربر من المسلمين . وكانت زيادة حجم قوات العرب المسلمين سبباً في :

ـ بطء حركة القوات بالمقارنة لما كانت عليه أيام الفتح الأولى .

ـ وجود ذيل إداري يثقل كاهل القوات أثناء التقدم ومسيرة العمليات ..

ـ ضروره تخصيص وحدات معينة ، لتأمين الامداد الإداري ، وحراسته وتوفيره للمقاتلين .

ـ ان ظاهرة البطء في التحركات تبرز بشكلها الواضح من خلال الفترة التي قضاها الحسان بن النعمان بين تعيينه ، وبين بداية العمليات حيث استمرت هذه الفترة سنة كاملة تقريباً .

وتتكرر هذه الظاهرة أيضاً من خلال تأخر عقبة بن نافع في استئناف عملياته للمرحلة الثانية ـ فترة سنة تقريباً ـ وذلك بهدف تأمين حشد القوات وتوفير متطلباتها ..

ـ ولقد عالج القادة ظاهرة زيادة حجم الذيل الإداري باتخاذ إجراءات مختلفة منها :

١ ـ تخصيص منطقة للشؤون الإدارية خلال مسيرة العمليات على نحو ما فعله موسى بن نصير عندما وصل وادي ملوية حيث خلف الأثقال تحت الحراسة وانطلق في عملياته .

٢ ـ تقسيم القوة الضاربة إلى مجموعات مختلفة تسير على التتابع بحيث تحافظ على مرونتها وتتحرر من أعباء ثقل الذيل الإداري وذلك على نحو ما فعله عقبة بن نافع خلال عودته من فتوحاته الثانية .

٣ ـ عدم زج كتلة الجيش الكبير في منطقة عمليات واحدة وتوجيهه على شكل مجموعات قتالية إلى أهداف مختلفة . كما فعل موسى بن نصير في فتح المغرب الأقصى « مراكش » .

ـ لقد اضطر قادة العرب المسلمين إلى زياده حجم قواتهم بسبب التحديات الكبيرة التي جابهتهم وتبع ذلك زيادة في حجم المتطلبات الإدارية . وكان نجاح القادة رائعاً في الحفاظ على التوازن بين المتطلبات الإدارية وبين متطلبات العمليات

بحيث لم يكن « الذيل الإداري » سبباً في إعاقة مسيرة العمليات وفقدان المرونة وسرعة التحركات وهي العوامل الأساسية في نجاح عمليات العرب المسلمين.

٦ – الامن، والاستطلاع :

– نفذت عمليات فتح أفريقية على مراحل متتابعة ، وكان يتم في كل مرحلة التوقف عند حدود معينة ثم تأتي المرحلة التالية لتحقق مزيداً من منجزات الفتح . ولم يكن التوقف عند حدود المرحلة يعني الجمود والسكون وانما يعني الاستعداد الدائم لمعارك مقبلة . فعندما توقفت عمليات عمرو بن العاص عند حدود « برقة » وتم تعيين عقبة بن نافع لقيادة الحامية المدافعة عند حدود مصر الغربية . كان عقبة يراسل « المسلمين في جرائد الخيل » بهدف الاغارة على الحدود المجاورة وجمع المعلومات عنها وجاء عبد الله بن سرح فتابع تنفيذ الخطة ذاتها . حتى أصبحت سنة للقادة جميعاً .

– كانت الإغارات الاستطلاعية من أفضل الوسائل التي اتبعها العرب المسلمون لجمع المعلومات عن الأرض ، والعدو . ولكنهم لم يتوقفوا عندها فكانوا يستفيدون من البربر الذين حسن اسلامهم للحصول على المعلومات الدقيقة . لاكمال صورة الموقف .

وهم أيضاً لم يتوقفوا عند هذه الحدود ، فكانوا يستخدمون كل وسيلة تبادلية من أجل تقاطع المعلومات وتأكيدها وذلك على نحو ما فعله حسان بن النعمان عندما كتب إلى خالد بن يزيد لموافاته بمعلومات دقيقة عن « الكاهنة » فكتب خالد رسالة وضعها في رغيف من الخبز وشواه فاحترقت الرسالة. فأرسل رسالة ثانية أودعها قربوص سرج المراسل . ووصلت المعلومات المطلوبة في الوقت المناسب مما ساعد حسان بن النعمان على توجيه قواته للقضاء على ثورة الكاهنة .

– وكانت المعلومات الدقيقة عن قوات الروم في قرطاجنة ومعرفة نقاط الضعف في التحصينات التي ساعدت حسان بن النعمان على تصفية مقاومة قرطاجنة وتدميرها بعد جلاء البيزنطيين عنها .

ـ كما كانت المعلومات الدقيقة عن الأرض، وطبيعة السكان، ومعرفة القبائل من أول العوامل التي ساعدت موسى بن نصير على التقدم حتى المغرب الأقصى وتحقيق الاستقرار في « أفريقية كلها » .

ـ وعلاوة على ذلك فقد كان أسلوب تنظيم القوات ودفع « المقدمات » امام الكتلة الرئيسية ، من جملة أساليب « الإستطلاع بالقوة » لجمع المعلومات وعدم تمكين العدو من مباغتة قوات العرب المسلمين في إقامتها وتحركها وخلال مسيرة عملياتها .

ـ لقد كان الاستطلاع وترتيبات الأمن عاملاً حاسماً فيما أحرزه العرب المسلمون من نجاحات في أعمالهم القتالية .

٧ ـ الحرب النفسية

ـ أتقن قادة العرب المسلمين اساليب الحرب النفسية ، وكان استخدامهم لهذه الأساليب بمهارة حتى أنهم استطاعوا الحفاظ على مضاء هذا السلاح ومغالبته مع استمرار أعمالهم القتالية كلها . وكانت حروبهم النفسية رديفاً لقواتهم المسلحة ولم تكن بديلاً لها بمعنى أن الحرب النفسية كانت لديهم وسيلة وليست غاية. وان هذا الوضوح في استخدام أساليب الحرب النفسية يتوافق مع أحدث معطيات الحرب النفسية وتجاربها .

ـ تظهر التجربة الأولى للحرب النفسية بوضوح تام في حرب عبد الله بن سعد لجرجير ملك أفريقية في معركة « عقوبة » حيث أعلن جرجير « ان من يقتل عبد الله بن سعد سيمنح مائة ألف دينار ويزوجه ابنته » فكان الرد الحاسم إعلان عبد الله [**من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده**] حتى صار جرجير أكثر خوفاً من عبد الله .

ـ وتظهر تجارب الحرب النفسية التالية فيما قام به عقبة بن نافع من أساليب قطع بعض أعضاء قادة المقاومة، أو من يحتمل لهم قيادة المقاومة ، كجدع الأنف

وقطع الاصبع بهدف ردعهم عن التفكير في تنظيم الحرب ضد العرب المسلمين . وكان الحافز الذي دفع عقبة لذلك هو كثرة ما شهده من أعمال ارتداد افريقيـة وتمردها فأراد بذلك استخدام الحرب النفسية كسلاح وقائي. وكان لهذا الأسلوب اثر حاسم فيما حققه عقبة من نجاح في عملياته حتى وصل المحيط الأطلسي .

– وكان أسلوب الاحتفاظ بالرهائن ـ في بعض جوانبه ـ أسلوباً من أساليب الحرب النفسية لردع قادة القبائل عن التمرد والاشتراك بالحرب ضـد العرب المسلمـين .

– كما كان بناء القواعد المتقدمة ، وإقامة الحاميات، في بعض جوانبه أيضاً، من أسالب الحرب النفسية التي أشعرت السكان ببقاء العرب واستمرار حكمهم وعدم تراجعهم عما حققوه من فتوحات . وأن أعمال الفتوح ليست مجرد غزوة عابرة أو إغارة مؤقتة وسريعة .

– لقد كان أسلوب قادة العرب المسلمين في حروبهم ، وفي وفائهم بالتزاماتهم وفي عـدم غدرهم بحلفائهم مقابل القسوة فيمن يغدر أو يخون المواثيق المعقودة مع القادة ، هو حرب نفسية في مضمونه ، ذلك أن هذا الأسلوب قد جعل قاده المقاومة يفكرون كثيراً قبل إعلان تمردهم لمعرفتهم بما ينتظرهم عند فشل ثورتهم ، ولقد كان الصدق في الوعد والوعيد من أول أساليب الحرب النفسية لقادة العرب المسلمين وأكثرها نجاحاً .

– كانت العمليات التي قام بها موسى بن نصير في أفريقية ، تطبيقاً عمليـاً ناجحاً لتوافق الحرب النفسية مع حرب القوات المقاتلة ، وتتويجاً لتجارب الحرب السابقـة في أفريقية . ويعود الفضل فيما حققه موسى بن نصير من نجاحات وانتصارات إلى أولئك القادة الذين خاضوا التجارب المتتابعة وحصلوا بنتيجتها على خبرات كثيرة في طليعتها « استخدام الحرب النفسية » ضمن حدود مرسومة وفي إطار واضح يخدم الهدف الذي تعمل القوات المقاتلة على إنجازه .

٨ – كفاءة القيادة :

– من الملاحظ نتيجة لتطور فن الحرب طوال عهد الفتوحات ، ظهور عدد من المعطيات التي أخذ القادة يلتزمون بها ومن بعض هذه المعطيات :

١ – ضرورة وجود القائد في المقدمة أثناء التقدم ومع المؤخرة ، الساقة ، أثناء الإنسحاب او التراجع .

٢ – وجود القائد مع كتلة القوات الرئيسية عند توزيع القوات للقيام بواجبات مختلفة .

٣ – وجود عناصر قيادية ، تعاون القائد وتعمل معه بارتباط وثيق ، كهيئة أركان حرب .

٤ – الإعتماد على أسس ثابتة ، والأخذ بعوامل ، تقدير الموقف ، دراسة الأرض قبل اتخاذ القرار اللازم للعمليات ووضعه موضع التنفيذ .

٥ – الحفاظ على الروح المعنوية للمقاتلين .

– لقد اعتمد الخلفاء الراشدين على أصحاب السبق في الإسلام ولمن عرف عنهم البأس والقوة والقدرة القيادية فظهرت طبقة قيادية رائدة أثناء فتوح الشام والعراق وفارس ومصر ، ثم أخذ الخلفاء الأمويون بإعطاء أفضلية القيادة لمن والاهم وناصرهم وكان العنصر العربي هو العامل الأساسي لإسناد المركز القيادي وعلى الرغم من ظهور أسماء غير عربية في تسلسل القيادات ، إلا أن الطابع الرئيسي للقيادة هو اعتماد العنصر العربي . وكان عامل الكفاءة القيادية هو الحاسم في تعيين القادة ، كقول يزيد بن معاوية عندما استشار أصحابه لتعيين وال على أفريقية [**من للأمر مثل عقبة ؟**]

وكقول عبد الملك بن مروان عند تعيين حسان بن النعمان لولاية أفريقية :

[**ما أعلم أحداً أكفأ أفريقية من حسان بن النعمان الغساني ..**]

– وان تعيين بعض الولاة على أساس الولاء يعتبر شذوذاً عن القاعدة واستثناء وليس أساساً لها .

ـ لقد أظهرت أعمال فتوح أفريقية طبقة قيادية على درجة الكفاءة استطاعت أن تمارس عملها بنجاح وفق التطورات التالية :

١ ـ زيادة حجم الوحدات المقاتلة ، وتضخم أعدادها على ما كانت عليه في بدايه الفتح .

٢ ـ وجود عناصر مختلفة ، والقدرة على التوفيق بينها ، العرب، الصقالبة، البربـــر .

٣ ـ ظهور زيادة حجم الامداد الإداري بسبب اتساع رقعة مسرح العمليات من جهة وزيادة حجم الوحدات المقاتلة من جهة أخرى .

٤ ـ معالجة الصعاب الخاصة بمسرح العمليات والقدرة على مجابهتها وايجـاد الحلول المناسبة لها .

ـ إن العودة إلى مسيرة العمليات القتالية في أفريقية بداية من هجوم عبـد الله بن سعد بن أبي سرح عام ٢٥ هـ . ونهاية بالوصول للأطلسي واستقرار المسلمين فيها أيام موسى من نصير ٩٠ هـ، تظهر القدرة القيادية وما تميز به القادة المتتابعون من كفاءات قيادية عالية .

٩ ـ الروح المعنوية وارادة النصر .

بين القيروان وآسفي على المحيط الأطلسي ما يزيد على ألف وخمسمائة كيلومتر. وطريق العودة يزيد على ذلـــك ، آلاف الكيلومترات سارها العرب المسلمون بقيادة عقبة بن نافع ثم بقيادة موسى بن نصير ، وقطعوا قبلها مـــا بين الشام والقيروان مسافات طويلة . ولم يكن طريق المسيرة مفروشاً بالورود ، فقد تخللته معارك ضارية وأعمال قتـال صعبه ، في الحر والبرد ، في السهول والصحارى والجبال ، وكانت معارك عنيدة مـــع مقاتلين أشداء ، وخصوم أقوياء يعرفون أرضهم ومناطق عملهم ورغم ذلك فقد حقق العرب المسلمون انتصارات رائعة انتهت بتحقيق الاستقرار ونشر الإسلام في ربوع أفريقية .

لم يكن عدد العرب المسلمين الذين أسهموا في فتوح المغرب كبيراً . ولم تكن الحاجة للطعام والشراب حافزهم لارتكاب الأخطار فقد كان لهم في سهول الشام والعراق مـــا يكفيهم مؤونة العيش برفاه لو كانت الدنيا هدفهم . كما لم تكن المغانم والمكاسب مبتغاهم ، فقد كان في البلاد التي فتحوها مغانم ومكاسب تزيد عن احتياجهم .

لقد جابه العرب المسلمون في فتح أفريقية نكسة بعد نكسة وقُتل من القادة خيارهم ومن المقاتلين فرسانهم وعرف المقاتلون أن معارك أفريقية شديدة الوطأة ثقيلة الأعباء باهظة الثمن ورغم ذلك تابعوا عملياتهم معركة بعد معركـــة حتى تعرف أهل البلاد على حقيقة العرب المسلمين وأهدافهم وعند ذلك التحم سكان البلاد مع العرب المسلمين وكانت لهم معاً أيام خالدة أبد الدهر .

لقـــد كانت الروح المعنوية العالية هي العامل الأساسي والحاسم في انتصار العرب المسلمين وتحقيق ما كان يريده العرب المسلمون من فتوحاتهم .

- كانت حروب العالم القديم والحديث تهدف إلى زيادة السيطرة أو النزاع على مجال حيوي . ولهذا لم تترك وراءها سوى شواهد وآثار صامتة ضمنهـــا التاريخ لتكون دليلاً على فشل كل اعمال الفتوحات المجردة من مثل أعلى .

- وكانت حروب العالم العربي - الإسلامي ذات مضمون انساني - حضاري ولهذا تركت من الآثار في النفوس والعقول، في الافراد والمجتمعات ما بقي خالداً مع الدهر .

- كان الإيمان بالقضية ، قضية الأمة العربية الإسلامية ، وواجبها في نشر الرسالة في أنحاء العالم وتعريف الدنيا بها ، هو الحافز الأول والأخير لما قام بـه العرب المسلمون من فتوحات وما تحملوه من مشاق ومـــا تكبدوه من جسام التضحيات ..

إن معارك أفريقية برهان واضح وأكيد على صلابة الانسان العربي وقوتـه

وشدة بأسه وإرادته الثابتة لكنها في الوقت ذاته برهان أيضاً على الروح المعنوية العالية التي تميز بها المقاتلون من العرب المسلمين .

١٠ ـ اقامة علاقات عامة جيدة

عندما توقف العرب المسلمون عن متابعة فتوحاتهم في أفريقية عام ٢١ هـ ، تابعوا اتصالاتهم مع زعماء قبائل البربر وأهل البلاد ، بهدف تعريفهم على الدين الاسلامي . ثم استؤنفت المعارك بعد ذلك وعقدت المعاهدات مع زعماء البلاد وشيوخ القبائل وكانت هذه المعاهدات تترك لأصحاب البلاد حرية العمل وتطبيق ما يريدونه من أعراف وعادات فكان من يدخل الاسلام يصبح له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين أما من رفض ذلك فعليه جزية معلومة له لقاء حماية المسلمين له . وكان انسحاب العرب المسلمين بعد عقد الاتفاقيات يشعر أهل البلاد أن فتوح العرب المسلمين ليس أكثر من غزوات هدفها الحصول على مغانم. ولهذ كانت تتكرر أعمال التمرد ، وكان النفوذ البيزنطي عاملاً مساعداً على التحريض وقيام الثورات المضادة . مما دفع قادة العرب المسلمين على إقامة القواعد المتقدمة لتكون منارات فكرية إضافة إلى دورها العسكري . وقد عرف أهل البلاد تدريجياً حقيقة الدين الاسلامي . وتعرفوا على طبائع حاملي الرسالة وأخلاقهم فأخذت عرى التلاحم تتزايد وثوقاً مع الأيام حتى أصبح العرب والأفارقة نسيجاً واحداً من المستحيل تمزيقه .

ـ لقد أنشأ الرومان والبيزنطيون « الليمات » على امتداد أفريقية وأقاموا فيها الحاميات لكن هذه الحاميات لم تلبث أن انهارت وتراجعت أمام المد العربي ـ الاسلامي ولم تترك من الآثار سوى شواهد عمرانية بين رمال الصحراء .ذلك أن الرومان وجند بيزنطة أقاموا على عزلة ولم يندمجوا مع السكان إلا في حدود ضيقة بينا تلاحم العرب مع سكان البلاد نتيجة لشعورهم بواجب تعريفهم على دينهم وأخذ دم المسلمين من عرب وأفارقة يمتزج برمال افريقية ليقيم وحدة حقيقية ، ولم يلبث الأفارقة حتى اضطلعوا بأنفسهم بحمل الرسالة وأسهموا الى

حد بعيد في نشر الاسلام وفتح الأندلس وحمايتها وتحقيق الاستقرار في افريقية..

– لقد دخلت شعوب كثيرة في الدين الاسلامي كالأتراك والفرس والاكراد، وأسهمت هذه الشعوب بدورها في نشر الدين الاسلامي لكن تلاحم العرب مع الأفارقة أخذ طابعاً خاصاً، وقد يكون السبب في ذلك هو تقارب طبيعة الشعبين وتماثل البيئة الجغرافية والاجتماعية وكونهما – أيام نشر الرسالة – أقرب الى البداوة في حياتهما ومفاهيمهما.

– كان بناء المجتمع العربي الإسلامي في افريقية شاقاً، اعترضته هزات قوية وعنيفة وسقط في افريقية آلاف الشهداء، لكن تلك التضحيات والجهود لم تذهب عبثاً ودونما فائدة، بل إنها رسخت جذور البناء وأرست قواعده على أسس ثابتة فارتفع البناء متيناً لم تنجح كل الأعاصير والزوابع بعد ذلك على زعزعته وإنما زادته قوة وثباتاً..

– لم يقتصر بناء المجتمع الجديد في افريقية على اذابة الفوارق الاجتماعية وصهر المجتمع الجديد في بوتقة واحدة، كما أنه لم يقتصر على اقامة المدن وبناء العمران، أو التجنيد في جيش واحد أو اقامة قوات مسلحة مستقلة، وانما تجاوز ذلك كله الى البنيان الاقتصادي. ففي عهد حسان بن النعمان الغساني – وفي الوقت الذي كان فيه عبد الملك بن مروان يضع أساس الاستقلال النقدي للدولة العربية، ووضع نقود جديدة – كان حسان بن النعمان يستبدل النقود القوطية والنقود البيزنطية بالدينار العربي..

كانت النقود المتداولة في افريقية قوطية وبيزنطية وكانت تحمل رسم ملوكهم وشعارات دولهم، فكان الدينار القرطاجني يحمل على وجهه الاول صورة القيصر وولي عهده أو القيصرة وبه من الكتابة اسم القيصر وألقابه، وعلى الوجه الثاني صليب في الوسط قائم على ثلاث درج ومكتوب على دائرته باللاتينية، ضرب هذا في افريقية، مع ذكر السنة بحسب عقد ذات عشر سنوات من اعتلاء ذلك القيصر حكم بلاده. وجاء حسان بن النعمان فضرب الدنانير

والدراهم والفلوس وحـذف من الصليب العمود الافقي وعوضه برسم الكرة في أعلى العمود الرأسي وحذف الدرج الأسفل من السلم ووضـع صورتي عبد الملك ابن مروان والوليد بن عبد الملك ابنه وكتب حسان في سكته باللغـة اللاتينية كلمة التوحيد على النحو التالي :

في الوجه الاول : بسم الله الرحمن الإله الأوحد

IN- NADNIMISR - CUNDS IN NMINE - DOMI MISERI

وفي الوجه الثاني : وحـده لا شريك ولا مثيل له CORDIS UNIUS

UNUS DEUS NISL SOCIUS ALIS SIMILLS

وكتب على هذا الوجه أيضاً : ضرب بافريقية في العشرة الثالثة « ٨٥هـ »

FE RIEI IN AFRICA IN DIETIOUE

– وكانت هذه الخطوة ، ضربة حاسمة للنفوذ البيزنطي في افريقية .

– واضافة الى ذلك ، عمل حسان بن النعمان على تدوين الدواوين ، وانشـاء المدارس بجوار كل مسجد وتقسيم الاراضي بين قبائل البربر ، والقيام بالخدمات العامة كفتح الطرق واصلاح القنوات للري ، وتنظيم اعمال الحراسة لحفظ الأمن وتنظيم الشؤون المالية للدولة .

– كان من نتيجة هذه الاجراءات وغيرها ، اقامـة مجتمع جديد يختلف في جوهره ومظهره عن المجتمع السابق ، وقد اطمأن أهـــل افريقية الى المجتمع الجديد بعـد أن عرفوه جيداً فأخـذوا يتسابقون لبنيانه والعمل فيه ودعمـه بجهـدهم كله .. وان الاحداث المتتالية التي جاءت بعـد ذلك تثبت هذه الحقيقة وتؤكدها ..

١١ – دروس النكسات :

١ – في عام ٦٣ هـ - ٦٨٣ م : استشهد عقبة بن نافع في معركة « تهوذة » وأثار « كسيلة » نيران الثورة المضادة وسيطر على افريقية وحدثت انتكاسـة استمرت خمسة أعوام ..

ـ وقد يكون من السهل القاء اللوم على عقبة واتهامه بالتقصير في اتخاذ تدابير الأمن أو التهاون في جمع المعلومات عن خصومه أو الاستهتار في بقائه مع مؤخرة قليلة لا تستطيع الدفاع عن نفسها مما انتهى إلى مأساة مدمرة محت كل الجهود التي بذلها عقبة حتى وصل بجنده الى المحيط ، لكن هذه الاتهامات تتداعى أمام بعض الحقائق ومنها أنه لا يجوز محاكمة «حادث تاريخي» في إطار زمني يختلف عن العصر الذي وقع فيه هذا الحادث ..

ـ لقد استطاع عقبة أن يقوم بهجوم كبير وصل به إلى المحيط على امتداد محور يزيد على ألفي كيلو متر .. ولم تكن القوات العربية الاسلامية في عددها كافية ـ دونما ريب ـ لاقامة حاميات مستقلة على امتداد محور العمليات .

ان الموارد الحياتية لجيش كبير ترهق سكان البلاد . وكان عقبة يوازن بين متطلبات الجيش وبين بناء المجتمع الجديد وبين تدابير الأمن . وان ايعازه الى قادته بالانطلاق في طريق العودة إلى القيروان على شكل مجموعات منفصلة هو برهان على أنه أراد التحرر من ثقل الذيل الاداري والوصول بسرعة إلى قاعدة عملياته مطمئناً في ذلك إلى ما أحرزه من انتصارات .

ـ ليس هناك ، سوى عدد قليل جداً من القادة ، الذين يستطيعون اتخاذ القرارات المناسبة في كل الظروف ، وان اتخاذ قرار ظهر خطأه عند التطبيق لا يقلل من أهمية النجاحات التي حققها عقبة في عملياته، ولو لم تكن عمليات عقبة اكثر من غزوة استطلاعية بالقوة للمغرب كله لكفاها غزوة خالدة حققت الكثير من الفوائد التي جنى التابعون ثمارها .

ـ لقد اكتشف عقبة ، أن حرب الصحراء هي حرب شؤون إدارية بالدرجة الأولى وأن العامل الاداري هو العامل الحاسم في نجاح معاركه والمحافظة على قواته . وان قراره بتقسيم جيشه إلى مجموعات مستقلة هو برهان على عبقريته القتالية أكثر منه برهاناً على اهماله مبادىء « فن الحرب » . وان شواهد حرب الصحراء في الحرب العالمية الثانية برهان ثابت على صحة هذه النظرية حيث

كانت معارك رومل ومونتغومري معارك شؤون إدارية بالدرجة الأولى .

ـ تميزت أعمال عقبة بن نافع بترسيخ عدد من مبادىء فن الحرب ـ كالمباغتة ـ والحشد والحرب النفسية والمحافظة على المبادأة ، والحفاظ على الروح المعنوية للمقاتلين وتحديد المكان الصحيح للقائد في المعركة وإن هذه المبادىء وظهورها بشكل واضح هي برهان على أن عقبة لم يكن ليهمل مبدأ « المحافظة على الأمن » أو الاستطلاع . لكن عوامل مسرح العمليات فرضت ذاتها على مقرراته ، وألزمته باتخاذ قرار كانت فيه نهايته المأساوية ، ولعل هناك خلل في أسلوب معاملة عقبة « لكسيلة » واحتقاره له ، لكن عذر عقبة في ذلك انه انسان يعيش انفعالات وأحاسيس مختلفة ، وكان غضبه على أبي المهاجر دينار سبباً في انتقال النقمة إلى كسيلة مما حمل هذا على الثورة واعلان التمرد وتجريد القوات لحرب العرب المسلمين والقضاء على عقبة في معركة « تهوذة » .

٢ ـ وفي عام ٧١ هـ ـ ٦٩٠ م : استشهد زهير بن قيس البلوي « في برقة » عند الاشتباك مع قوة انزال بحري وجهتها بيزنطة للقضاء على جيش العرب المسلمين . وقامت « الكاهنة » بقيادة ثورة مضادة وحدثت انتكاسة كبيرة للمرة الثانية استمرت ثلاثه أعوام حتى استطاع حسان بن النعمان الغساني تصفية هذه الثورة والقضاء على النفوذ البيزنطي ومهد السبيل لاستقرار العرب المسلمين في عهد موسى بن نصير الذي أعقبه في ولاية افريقية ..

ـ قاد زهير بن قيس معركة « ممس » الخالدة وقضى على ثورة كسيلة ، ثم توج عملياته بالتوغل في افريقية وفتح مدينة تونس .. ويظهر من ذاك أن زهير قد احتل مكانته القيادية عن جدارة وكفاءة ، لكن الانزال البيزنطي المباغت دفعه إلى التوجه على رأس قوة ضعيفة في اتجاه برقة على أمل أن تلحق به كتلة القوات الرئيسية ، ووجد ذاته أمام موقف لا مجال للتردد فيه ، فقد استثارت حميته العربية صرخات النساء والاطفال تحت ذل الجند البيزنطيين فصمم على خوض معركة يائسة ، في ظروف غير متكافئة .

لقد خطط الروم لهذه الاغارة المباغتة ، وعملوا على الاعداد لهـا بدقة ، وتم تنفيذها بمهارة حيث كان جيش « افريقية » بعيداً ، ومن المحتمل ان تكون بعض المعلومات قد تسربت عن تحرك الاسطول البيزنطي ممـا حمل زهير على العودة بسرعـة في اتجـاه مصر ، لكن تسارع الاحداث لم يمكنه من اتخاذ الاجراءات الكفيلة باحباط العدوان فكانت نهايته الحتمية . ومرة أخرى قد يكون الحكم على زهير « بالفشل في القيادة » حكماً جائراً ذلك لأن هـذه الحاكمة تفصل الحادث التاريخي عن « إطاره الزمني».. فزهير بن قيس ، إنسان عربي ، عرف بالشجاعة ، والمروءة ، والنجدة ، ومن الصعب تصور زهـير بن قيس يقف على رأس قوة صغيرة ويشهد بعينيه ما يحـدث للمسلمين ثم يبقى في موقف المتفرج ريثما تصل قواته الرئيسية دون أن يزج بنفسه في المعركة بصرف النظر عن كل تقدير للنتائج التي ستنتهي إليها المعركة ..

– كان هدف الروم من إغارتهم القضاء على جيش زهير ، وقام زهير بهجومه على غير استعداد مسبق ، وبذلك كان موت زهير والصحابة والتابعين ممن سقطوا في المعركة فداء ، حفظ لجيش العرب المسلمين كتلته الرئيسية ..

– أفاد قادة العرب المسلمين من هذه الانتكاسات بقدر ما أفادوا من تجاربهم الناجحة ، وكان تطوير القواعد المتقدمة ، وانشاء أسطول بحري خاص بافريقية وتدمير كل نفوذ لبيزنطة ، وتوثيق عرى التعاون مع اهـل البلاد هي من بعض نتائج هذه التجارب الفاشلة .. كما كان لهذه التجارب فوائدها على المدى البعيد ذلك انها أكسبت مقاتلي العرب المسلمين مزيداً من الخبرات والمعارف بطبيعـة السكان والطبيعة الجغرافية للاقليم مما مهد السبيل أمـام تحقيق استقرار دائم في افريقية ومرحلة للانتقال نحو عمليات أكثر توسعاً في آفاق جديدة .

قراءات

آ – عبد الله بن سعد بن ابي سرح ـ القرشي العامري[1]

٤٦ ق هـ ـ ٣٦ هـ – ٥٧٧ ـ ٦٥٦ م

اری الأمر لا يزداد الا تفاقماً ... وأنصارنا بالمكتين قليل
وأسلمنا اهل المدينة، والهوى ... هوى اهل مصر ، والذليل ذليل

من شعر ابن أبي سرح يوم حوصر الخليفة عثمان بن عفان

عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن حبيب بن جذيمة بن نصر بن مالك بن حسل ابن عامر بن لؤي القرشي العامري ويكنى أبا يحيى ، وأمه مهابة بنت جابر الأشعري ، أرضعت عثمان بن عفان فهو أخو عثمان بالرضاعة ..

من أوائل المسلمين ، ثم ارتد ورجع الى مكة ، فأهدر النبي دمه ، مما دفعه إلى الفرار يوم فتح المسلمون مكة ، واللجوء إلى أخيه عثمان بن عفان ، فتوسط له عثمان عند الرسول الأعظم فعفى عنه ..

– كان عبد الله قائداً للميمنة أثناء تحرك عمرو بن العاص لفتح مصر ، ثم تولى صعيد مصر بعد فتحها في خلافة عمر بن الخطاب ثم حدث خلاف بينه وبين عمرو بن العاص في بداية عهد خلافة عثمان بن عفان . فحسم الخليفة عثمان ابن عفان الخلاف بعزل ابن العاص وتعيين ابن أبي سرح لولاية مصر وخراجها ..

(١) أسد الغابة ٣ ـ ١٧٣ . الاستيعاب ٣ ـ ٩١٨ . سيرة ابن هشام ٤ ـ ٢٨ . طبقات ابن سعد ٧ ـ ٤٩٦ . شذرات الذهب ١ ـ ٤٤ . تهذيب ابن عساكر ٧ ـ ٤٠٧ .

استأذن ابن أبي سرح الخليفة عثمان لغزو افريقية فأذن له وأمـــده بجيش كبير فيه عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، والحسن والحسين ، لذلك سمي هذا الجيش « بجيش العبادلة » .

– انطلق ابن أبي سرح بجيشه من منطقة الحشد في برقـــة حيث انضمت إليه حاميتها بقيادة عقبة بن نافع ، وقام بفتح طرابلس ثم حدثت معركة مـــع جرجير في عقوبة على مقربة من سبيطلة ، وانتصر المسلمون بعد أن لحقت بهم قوات الدعم التي وجهها الخليفة عثمان ، ثم حاصر سبيطلة ففتحها ووجه بمجموعة قتالية إلى قفصة ففتحها ووجه بمجموعة إلى حصن الأجم .

في سنة ٢٨ هـ : قاد عبد الله بن سعد الأسطول من مصر وقام بغزو قبرص.

في سنة ٣١ هـ : عقد عبد الله بن سعد صلحاً مع النوبة وأمن الحـــدود الجنوبية لمصر .

في سنة ٣٣ هـ : نقض أهل أفريقية العهد . فقام عبد الله بقيادة جيشه وأعاد فتح أفريقية .

في سنة ٣٤ هـ : غزا غزوة ذات الصواري ، وأظهر بطولة رائعة وقيادة ماهـــرة .

في سنة ٣٥ هـ : استدعاه الخليفة عثمان لاستشارته ، واستقل محمد بن أبي حذيفة بمصر .

في سنة ٣٦ هـ : وبعد مقتل عثمان ، عزل عبد الله بن سعد وعين قيس بن سعد ابن عبادة لولاية مصر .

وعاد عبد الله إلى عسقلان وتوفي فيها .

—*—

ب – معاوية بن حديج السكوني[1]

٥٢ هـ – ٦٧٢ م

[... غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ...]

حديث شريف رواه معاوية بن حديج

معاوية بن حديج بن جفنة بن قتيرة بن حارثة بن عبد شمس بن معاوية بن جعفر ابن أسامة بن سعد بن أشرس بن شبيب بن السَّكوُن السكوني . يكنى أبا نعيم وقيل أبا عبد الرحمن .

وأمه كبشة بنت معدي كرب .

– كان ابن حديج في قوة جيش عمرو بن العاص لفتح مصر . وكان رسوله إلى الخليفة عمر بن الخطاب لإعلامه بفتح مصر والاسكندرية .

– وفي سنة ٣١ هـ : كان ابن حديج في القوة التي قادها عبد الله بن سعد ابن أبي سرح لفتح النوبة فذهبت عينه يوم دمقلة حيث وصف الشاعر العربي المعركة بقوله :

لم تر عيني مثل يوم دمقلة والخيل تعدو بالدروع مثقلة

– وفي سنة ٣٤ هـ : قاد معاوية مجموعة قتالية لفتح أفريقيا وذلك في ولاية عبد الله بن سعد لمصر وعهد الخليفة عثمان . وكان في هذه المجموعة القتالية جماعة من المهاجرين والأنصار ففتح ابن حديج مناطق واسعة وغنم غنائم عظيمة واتخذ القيروان قاعدة له .

– وفي سنة ٤١ هـ : قاد مجموعة قتالية ومعه عبد الملك بن مروان وفتح بنزرت .

– وفي سنة ٤٥ هـ : قاد معاوية جيشاً قوته عشرة آلاف مقاتل فيهم عبد الله

....

(١) اسد الغابة ٣٨٤/٤ . الاستيعاب ١٤١٤/٣ . البلاذري/٢٣٧ . طبقات ابن سعد ٧-٥٠٣ . شذرات الذهب ١-٥٨ . تهذيب التهذيب ١٠-٢٠٤ .

ابن عمر بن الخطاب وجماعة من االصحابة والتابعين فنزل بقمونية وهزم جرجير ملك سبطلة عند الأجم .

ثم وجه معاوية بن حديج قوة قتالية بقيادة عبد الله بن الزبير ففتح سوسة .

ووجه مجموعة قتالية أخرى بقيادة رويفع بن ثابت الأنصاري لفتح جزيرة جربة القريبة من تونس .

ووجه مجموعة ثالثة بقيادة عبد الملك بن مروان ففتح جلولاء .

ثم استقر في جبل القرن وجعله قاعدة لعملياته . وبقي هناك ثلاث سنين .. وكانت آخر غزوة له عام ٥٠ هـ .

- في سنة ٥٠ هـ : وجه معاوية بن حديج مجموعة قتالية لغزو أفريقية بقيادة عقبة بن نافع .

أما في مجال العمليات البحرية ، فقد وجه معاوية بن حديج حملتين بحريتين.

١ - حملة بقيادة عبد الله بن قيس قوتها مائتي مركب لغزو صقلية سنة٣٦هـ.

٢ - حملة بقيادة عقبة بن نافع الفهري لغزو الروم وذلك عام ٤٦ هـ .

وفي عام ٥٢ هـ توفي في مصر ودفن فيها .

كان معاوية بن حديج عثمانياً ، مخلصاً ، قوي الإيمان ، صلب العقيدة ، مقاتلاً عنيداً وقائداً حكيماً .

ج - عقبة بن نافع الفهري (١)

١ ق. هـ - ٦٣ هـ ، ٦٢١م - ٦٨٣م

[... اللهم اشهد اني قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد احد من دونك ...]

عقبة بن نافع - قالها وقد وصل الاطلسي خلال تقدمه في المغرب .

عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن الضرب بن الحارث ابن فهر القرشي .

....

(١) رياض النفوس ١-٥-٤ . اسد الغابة ٣-٤٢٠ ، الاستيعاب ٣-١٠٧٦ . فتوح مصر والمغرب - ٢٦٢ . شذرات الذهب ١-٥٣ . الكامل : لابن الاثير ٣-١٨٤ .

ـ أمه سبية من « عَنَـزَة » اسمها النابغة أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ واشتراها الفاكهة بن المغيرة ثم اشتراها عبد الله بن جدعان ثم صارت إلى نافع بن عبد القيس قبل أن تنتهي إلى العاص بن وائل . ولهذا فان عقبة بن نافع أخ عمرو ابن العاص لأمه .

نشأ عقبة في بيئة إسلامية وفي وسط حربي له القادة والريادة .

ـ في سنة ٢١ هـ : كان عقبة في جيش فتح مصر ، وكلفـه عمرو بن العاص بفتح زويلة . وفي السنة ذاتها قاد عقبة مجموعة لفتح النوبـــة ، ثم تولى قيادة حامية برقة .

ـ سنة ٢٦ هـ : انضمت حاميته إلى جيش عبد الله بن سرح لفتح طرابلس . ثم عاد إلى برقة وبقى فيها .

ـ سنة ٣٩ هـ . قاد عقبة القوات المصرية لغزو الروم بحراً .

ـ سنة ٣٩ هـ : قاد عقبة الشاتية ومعه أهل مصر فشتى في بلاد الروم .

ـ سنة ٤١ هـ : أسند عمرو بن العاص قيادة القوات في أفريقية إلى عقبة فقاد قواته حتى (لواتة) وإصدر ابن العاص أوامره بضم (هوارة) إلى عقبة بعدأن ارتد أهلها فأخضعها عقبة .

ـ سنة ٤٢ هـ : افتتح عقبة [غدامس] .

ـ سنة ٤٣ هـ : افتتح كوراً من السودان كما افتتح ودان للمرة الثانية سنـة ٤٦هـ ثم تابع إلى [جرمة] ومنها إلى [فزان] و [خاور] ثم فتح بلاد كاوار ، ووصل حتى الأطلسي .

ـ سنة ٥٥ هـ : عين معاوية بن أبى سفيان مسلمة بن مخلد الأنصاري الخزرجي لولاية مصر وأفريقيا فعين مسلمة أبا المهاجر دينار على أفريقية وقام أبو المهاجـر دينار باعتقال عقبة وإلقائه في السجن .

ـ سنة ٦٢هـ : اعاده يزيد لولاية أفريقية ، فعمل على إلقاء أبي المهاجر دينار في السجن ، وعاود فتوحاته حتى أخضع كل المتمردين وخلال عودته اضطـر

لتقسيم قواته وتوجيهها نحو القيروان على موجات متتابعة . وبقي مع المجموعة الأخيرة فباغتته قوة كبيرة من البربر في تهوذة بقيادة كسيلة فقاتل عقبة هذه القوة حتى قتل . وبدأت حركة تمرد استمرت خمسة أعوام ، وحتى أيام عبد الملك بن مروان سنة ٦٩ هـ ، حيث تم إخضاع حركة التمرد .

د - أبو المهاجر دينار [1]

٠٠٠، ٦٣ هـ - ٠٠٠، ٦٨٣م

[ان ابا المهاجر صبر علينا في غير ولاية ولا كبير نيل ، فنحن نحب ان نكافئه ..]

قالها مسلمة بن مخلد عندما عزل عقبة وعين
ابا المهاجر لولاية أفريقية سنة ٥٥هـ ٦٧٤م

ابو المهاجر دينار بن دينار مولى مسلمة بن مخلد الأنصاري - من التابعين.

- **في سنة ٥٥ هـ** : أصدر معاوية بن أبي سفيان قراره بتعيين مسلمة بن مخلد الأنصاري لولاية مصر وأفريقية ، فعمل مسلمة على عزل عقبة بن نافع عن ولاية أفريقية وتعيين أبي المهاجر بدلاً منه فتوجه أبو المهاجر دينار إلى أفريقية وعزل عقبة وأساء معاملته وألقى به في السجن ، مما جعل عقبة يحقد عليه ويقول :

[اللهم لا تمتني حتى تمكني من ابي المهاجر دينار بن دينار ..]

- بعد أن استقر الأمر لأبي المهاجر دينار وضع مخططه لتطهير المنطقة ما بين بنزرت وطنجة والقضاء على قوة الروم فيها بهدف تدمير كل جيوب الثورة المضادة وقطع كل اتصال مع الروم بهدف التآمر على العرب المسلمين .

- توجه أبو المهاجر بقواته إلى قرطاجنه ، وحاصرها طويلاً ثم فتحها صلحاً

---

(١) رياض النفوس ١-١٩-٢١ . الاستقصا ١-٧١-٧٤ . فتوح البلدان - البلاذري ٢٣٠ . فتوح مصر والمغرب ٢٦٥-٢٦٧ . النجوم الزاهرة ١-١٥٧ . الكامل : ابن الاثير ٣-١٨٤-٤-٤٢ .

على أساس اخلاء جزيرة شريك . وقد جعل أبو المهاجر من هذه الجزيرة قاعـدة متقدمة وبذلك منع العدو من استخدامها وأفاد منها كنقطة مراقبة متقدمة .

– توجه أبو المهاجر بعد ذلك إلى (ميلة) الواقعة على بعد خمسين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من بجاية فحاصر حاميتها المكونة من الروم والبربر وفتحها . ثم جعلها قاعدة انطلاق لعملياته وأقام فيها مدة سنتين .

كان كسيلة بن لمزم الأوربي زعيم قبيلة أوربة . فجمع قوات كبيرة لمقاومـة الزحف الإسلامي ، وعلم بذلك أبو المهاجر ، فتوجه إلى قاعدته في تلمسان وبعد معركة عنيدة وحاسمة ، انتصر أبو المهاجر وأسر كسيلة فأحسن معاملته وقربه فتظاهر كسيلة بالاسلام واستقر الأمر للمسلمين فعاد أبو المهاجر إلى القيروان .

– في سنة ٦٢ هـ : أعاد يزيد عقبة بن نافع لولاية أفريقية ، فخرج عقبـة من دمشق ووصل القيروان بسرعة ، وألقى القبض على أبي المهاجر وألقى بـه في السجن وأراد التوجه إلى طنجة فقال له أبو المهاجر : (**ليس بطنجة عدو لك ، لأن الناس قد اسلموا وهذا رئيس البلاد – كسيلة – فابعث معه واليأ ..**) لكن عقبة لم يستمع لنصح أبي المهاجر وخرج بنفسه ، ومعـه أبو المهاجر مكبلاً بالحديد . وأساء معاملة كسيلة ، فهرب هذا ، وجمع جيشاً كثيفاً هاجم به عقبة قرب تهوذة وعنـد ذلك أطلق عقبة سراح أبي المهاجر وقال له : – (**الحق بالقيروان : وقم بأمر المسلمين وانا اغتنم الشهادة فأجابه ابو المهاجر وانا اغتنم الشهادة مثلك**) . فكسر كل واحد منهما غمد سيفه ، وكسر المسلمون أغماد سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا سنة ٦٣ .

٥ - عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي- القرشي(١)

١ - ٧٣ هـ : ٦٢٢ - ٦٩٢م

[ابشر ! لا تمسك النار أبداً . ويل لك من الناس وويل للناس منك ..]

- قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن الزبير عندما شرب الدم الذي احتجم من الرسول -

- عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة . وأمه أسماء بنت أبي بكر ، ذات النطاقين . وجدته لأبيه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وعمة أبيه خديجة بنت خويلد ، ام المؤمنين وخالته عائشة ام المؤمنين ويكنى عبد الله ، أبا بكر وأبا خبيب « اسم أكبر أولاده ».

- ظهر طموحه وحبه للقيادة وشدة بأسه منذ نعومة أظفاره .

- فاشترك عبد الله مع أبيه في معركة اليرموك ، سنة ١٣ هـ .

- واشترك مع أبيه أيضاً في فتح مصر وكان من شهود عقد الصلح مع المقوقس سنة ٢١ هـ .

- وعندما تم فتح ليبيا وجه عمرو بن العاص مجموعة قتالية بقيادة عبد الله بن الزبير لفتح صبراتة . وأسرع عبد الله في سيره وقام بهجوم مباغت ونجح في احتلال صبراتة .

- وكان مع قوة الدعم التي وجهها الخليفة عثمان لفتح أفريقية بقيادة عبد الله ابن سرح. وعندما طال أمد الحصار اقترح عبد الله تقسيم قوة المسلمين إلى مجموعتين

....

(١) اسد الغابة ٣ - ١٦١ - ١٦٣ . الاستيعاب ٣ - ٩٠٥ . تهذيب ابن عساكر ٧ - ٣٩٦ - ٤٢٣ . فتح مصر والمغرب ٢٤٦ - ٩ : ٢ . الكامل لابن الاثير ٤ - ١٣٦و٥٨ . تاريخ الطبري ٤ - ٣٨٥ و ٥ - ١٠ .

لتحقيق الإستمرار في القتال والحصول على « المباغتـة » ونجح مخططه في تدمير قوة جرجير عامل الروم.

– وكان عبد الله بن الزبير الساعد الأيمن لمعاوية بن حديج السكني في فتح أفريقية.

– وفي عام ٤٥ هـ : فتح عبد الله السوسة في أفريقية .

– وفي عام ٤٩ هـ : كان عبد الله في قوة غزو القسطنطينية .

– كان عبد الله أثيراً عند الخليفة الصديق أبي بكر . وكذلك كان شأنه مع الخليفة عمر والخليفة عثمان ، ودافع عن الخليفة عثمان دفاع المستميت .

– اشترك في موقعة الجمل ، ثم اعتزل الخلاف بين علي ومعاوية . وعندمـــا استقر الأمر لمعاوية بايعه عبد الله فكان معاوية يستقبله بقوله [مرحباً بابن عمة رسول الله] .

– عرف عن عبد الله قوة الحجة وطلاقة اللسان .

– امتنع عبد الله عن بيعة يزيد.وقوي شأنه لا سيما بعد وفاة يزيد واختلاف الأمر بعد معاوية بن يزيد . فبويع لعبد الله في الحجاز والعراقين ومصر وأكثر الشام وخراسان واكثر السند وبقـي حتى أيام عبد الملك بن مروان حيث ركز عبد الملك قواتـه بقيادة الحجاج بن يوسف ، وقضى على ثورة عبد الله بن الزبير الذي بقي يقاتل حتى قتل ، فما كان من الحجاج إلا أن أمر بصلبه .

و – بسر بن أرطاة العامري – القرشي .. (١)

٢ – ٨٦ هـ : ٦٢٣ – ٧٠٥ م

[...ان أفرض لمن شهد بيعة الحديبية مائتين من الدنانير ، وأتمها لخارجة بن حذافة لضيافته ولبسر بن أرطاة لشجاعته ..]

في كتاب الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص بعد فتح مصر .

بسر بن عمير « أبي أرطأة » بن عويمر بن عمران بن الحليس بن سيار بن نزار

---

(١) تهذيب ابن عساكر ٣ – ٢٢٠ . اسـد الغابة ١ – ١٧٩ . الاستيعاب ١ – ١٥٧ – ١٦٠ . الولاة والقضاه ١٤ – ٢١ . تاريخ الطبري ٤ – ١٧٤ – ٢١٤ . فتوح مصر والمغرب ٢٦٢ .

ابن معيصر بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر يكنى أبا عبد الرحمن .

– توجه بسر إلى مصر في قوة الزبير بن العوام لدعم عمرو بن العاص، وعندما وصل عمرو في فتوحه إلى طرابلس وجه بسر ومعه مجموعة قتالية لفتح « ودان » سنة ٢٣ هـ .

– وفي عام ٢٧ هـ : كان بسر في جيش العبادلة لفتح أفريقية .

– وفي عام ٣٥ هـ : قفز محمد بن أبي حذيفة إلى السلطة في مصر . فتصدى لمقاومته معاوية بن حديج وبسر بن أرطأة . وكان بسر أول من بايع معاوية بن حديج على الثأر لعثمان .

– وفي عام ٣٦ هـ : وجه محمد بن أبي حذيفة جيشاً إلى « خربتا » مقر شيعة عثمان ، وحدثت معركة انتصر فيها أصحاب عثمان .

– وفي عام ٣٧ هـ : تولى قيس بن سعد ولاية مصر لعلي بن أبي طالب، فأكرم قيس أنصار عثمان وكان ذلك سبباً في سخط علي وتعيين محمد بن ابي بكر لولاية مصر .

– وفي عام ٣٧ هـ : التحق بسر بن أرطأة بالشام وانضم إلى معاوية بن أبي سفيان في معركة صفين .

– في عام ٣٨ هـ : استشار معاوية بن أبي سفيان كلا من عمرو بن العاص وبسر بن أرطاة ووجوه رجاله في فتح مصر فأشاروا بذلك . فأرسل عمرو بن العاص ، وفتح مصر وقتل محمد بن أبي بكر .

– في عام ٤٠ هـ : وجه معاوية مجموعة إلى الحجاز واليمن بقيادة بسر بن أرطاة، فقتل بسر آلافاً ممن اشتركوا في مقتل عثمان وناصروا علياً بن أبى طالب.

– في عام ٤٣ هـ : غزا بسر بلاد الروم وشتى بأرضهم حتى وصل القسطنطينية .

– في عام ٤٤ هـ : غزا بسر في البحر .

– في عام ٤٦ هـ : خرج إلى المغرب مع عقبة بن نافع ومعه شريك بن سمي المرادي . .

– في عام ٥٠ هـ و ٥١ هـ : كان بسر على غازية الصيف وشاتيه عام ٥٢ هـ فتح « مجانة » بافريقية وهي تسمى « قلعة بسر » .

تولى بسر ولاية البصرة سنة ٤١ هـ كما ولي امارة اليمن . وكان عثمانياً صلباً ومقاتلاً عنيداً ، خرف في الأيام الأخيرة من عمره فكان يحمل سيفه ويسأل من يصادفه « أين شيخي عثمان » . فاستبدل له أهله سيفه بسيف خشبي حتى لا يؤذي أحداً ، ومات في أيام الوليد بن عبد الملك .

ز – زهير بن قيس البلوي [1] ولقبه « ابا شداد »

١ – ٧١هـ ، ٦٢١ – ٦٩٠م

زهير بن قيس البلوي ، صحابي روى عن جماعة الصحابة وروى عنه جماعة من التابعين ومن أحاديثه أنه عندما حدثت الفتنة بين معاوية وعلي . خرج زهير مع عمرو بن العاص وذلك التزاماً بما سمعه من حديث عن علقمة بن رمية البلوي الذي قال :

(بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى البحرين ثم خرج رسول الله في سرية وخرجنا معه فنعس رسول الله ثم استيقظ فقال « رحم الله عمرو ، وأعادها ثلاث مرات فقال له الناس ما باله ؟ قال ذكرت أني كنت إذا ندبت الناس إلى الصدقة جاء من الصدقة فأجزل فأقول له من أين لك هذا يا عمرو ؟ فيقول من عند الله ، وصدق عمرو ، ان لعمرو عندالله خيراً كثيراً » ! فلما كانت الفتنة قلت : أتبع هذا الذي قال رسول الله فيه ما قال :

– كان زهير بن قيس في جيش عمرو بن العاص عند فتح مصر .

– سنة ٦٢ هـ : كان زهير على مقدمة القوات عندما تقدم عقبة بن نافع حتى وصل المحيط ، ثم عاد حتى وصل القيروان .

---

(١) تهذيب ابن عساكر ٥ – ٣٩٣ . الاستقصاء ١ – ٨١ . التاريخ الكامل لابن الاثير ٤ – ٤٣ . وجاء في ابن عساكر انه قتل عام ٧٦ ، وهو يخالف الواقع .

– سنة ٦٣ هـ : أراد زهير البقاء في القيروان بعد « استشهاد عقبة » في «تهوذة» لكن بعض الصحابة وفي مقدمتهم حنش الصنعاني[1] نصحوه بالتراجع، وسبقوه اليه، فاضطر إلى الانسحاب بمن معه حتى « برقة » وبقي فيها طوال خمسة أعوام .

– سنة ٦٩ هـ : وجه عبد الملك بن مروان على رأس جيش كبير لإعادة فتح أفريقية ، وقاد زهير معركة حاسمة في « ممس » انتصر فيها على كسيلة .

– سنة ٧٠ هـ : قامت القوات البيزنطية بانزالها في « برقة » وعاد زهير بسرعة على رأس قوة صغيرة ، وخاض معركة يائسة ، استشهد فيها مع جميع أصحابه ..

ج – حسان بن النعمان الأزدي – الغساني –[2]
« الشيخ الأمين »

٠٠٠، ٨٧هـ : ٠٠٠، ٧١٥م

[ليس مثلي يخون الله ولا الخليفة . ووالله لا الي لبني أمية أبداً ..] حسان

الغساسنة، ملوك الشام « أبناء جفنة » هم أهل حسان ، منهم من أسلم ومنهم من بقي على ولائه لبيزنطة مثل جبلة بن الأيهم . فالتحقوا ببيزنطة بعد الفتح ، وكان حسان من التابعين ، روى عن الخليفة عمر بن الخطاب وكانت له مكانة مرموقة عند الأمويين خاصة وعند الناس عامة .

– سنة ٧٤ هـ : جهز عبد الملك بن مروان جيشاً كبيراً واستعمل عليهم وعلى

---

(١) تهذيب ابن عساكر ٥ – ٩ . الاستقصا ١ – ٧١ .

(٢) تهذيب ابن عساكر ٤ – ١٤٦ . الاستقصا ١ – ٨٢ . فتوح مصر والمغرب ٢٧٠ .

أفريقية حسان بن النعمان ، كانت قوة الجيش ٤٠٫٠٠٠ مقاتل ، وهو أكبر جيش خرج من الشام وكان ذلك بعد مقتل زهير بن قيس .

– سنة ٧٦ هـ : فتح حسان قرطاجنة « الفتح الأول » ثم أعاد فتحها في السنة ذاتها فهدم المسلمون ما أمكن منها . وتوجه بعدها لحرب الكاهنة فكانت هزيمته في معركة نيني ، وعاد إلى منطقة « قصور حسان » قريباً من « سرت » . حيث أقام لفترة خمسة أعوام .

– سنة ٧٨ هـ : قامت القوات البيزنطية بانزال في « قرطاجنة » واحتلتها وأعادت تحصينها ومكثت فيها حتى عام ٨١ هـ .

– سنة ٨١ هـ : انطلق حسان بهجوم حاسم فقضى على ثورة الكاهنة ثم قضى على قوة بيزنطة في قرطاجنة ودمرها واستخدم الاسطول للقضاء على قوة الروم في الجزر القريبة من سواحل أفريقية وتابع توجيه قواته حتى فرض سيطرته على أفريقية .

قام بالتخطيط لمدينة « تؤنس ـ تونس » وأشرف على بنائها .

سنة ٨٥ هـ : ولى عبد العزيز بن مروان عبداً له يقال له تليد « لولاية برقة » وكانت بها أشراف الناس ، فكبرت عليهم إمامة تليد فاعتقة عبد العزيز ثم انه سأل حسان أن يترك ولاية « برقة » لتليد فلم يتركها له ، فعزله عبد العزيز ورجع حسان من مصر إلى الوليد بن عبد الملك الذي ولي الخلافة بعد أبيه عبد الملك سنة ٨٦ هـ . فشكى إليه ما صنع به عبد العزيز فغضب الوليد لذلك ، وقال حسان لمن معه « إئتوني بقرب الماء » ففرغ منها ما جاء به من الفضة والذهب والجوهر فقال له الوليد بن عبد الملك: جزاك الله خيراً يا حسان فأجابه حسان: يا أمير المؤمنين ، إنما خرجت مجاهداً في سبيل الله وليس مثلي يخون الله ولا الخليفه. فقال الوليد : (أنا أردك إلى عملك وأحسن إليك وأنوه بك) . فحلف حسان (لا ألي لبني أمية أبداً ..) وخرج في السنة التالية لغزو بلاد الروم ومات فيها .

قال أبو عتيك عندما جاء نبأ عزل حسان :

أقول لأصحابي عشية جاءنـــا	بغير الذي تهوى البريد المبشر
ألا مـا الذي قال ابن نعمان دوننا	فقال متاح الخير والخير يقــدر
فقلت ولم أملك سوابـــق عبرة	فنعـــم الفتى المعزول والمتنظر
فان يــك هذا الدهر جاء بعزله	عليـــه فان الدهر بالمرء يعثر

* * *